

دُرُّ مِينُ

تَقْسِيرُ الْقُرْطَبِيِّ

إِبْرَاهِيمُ مُحَمَّدُ الْيَافِعِيُّ



حقوق الطبع غير محفوظة
يحق لأي شخص طباعة الكتاب
وبيعه وتوزيعه

درر من تفسير القرطبي

﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين . . . **وبعد** .

فهذه مائتان وخمسون درة جمعتها لك من تفسير الإمام القرطبي - رَحِمَهُ اللهُ - المسمَّى (الجامع لأحكام القرآن). وهذه الدرر والفوائد مشتملة على درر في العقيدة والفقه والأخلاق وسائر العبادات والمعاملات . . . وغيرها .

ولما كان الكثير من الناس لا يطلعون على هذه الكتب - ومنها تفسير القرطبي - ولا يعرفون قيمة ما فيها من الأحكام والفوائد والدروس . . . ؛ انتقيت من هذا الكتاب هذه الدرر والفوائد في كتاب يكون في متناول الجميع؛ لتعم فائدتها، ويسهل على الجميع الاطلاع عليها، وأخذ الفوائد منها .

انتقيت من هذا الكتاب حسب ما رأيت فيها النفع والفائدة، ولا أدعي أنني جمعت كل الدرر؛ فقد يأتي بعدي من يطلع على تفسير القرطبي؛ ليستخرج أضعاف ما استخرجته .

عملي في هذا الكتاب:

١ - أحياناً يستشهد الإمام القرطبي بأحاديث فيها الصحيح وفيها الضعيف والموضوع؛ لذلك لم أنقل - من هذا التفسير - إلا الأحاديث الصحيحة، وتركت أي حديث ضعيف أو موضوع استشهد به؛ فبالأحاديث الصحيحة غني عن ذلك .

- ٢ - عندما يرد في الكلام كلام ليس من تفسير القرطبي - سواء كان من كلامي أو من غيره - أضعه بين معقوفين [] .
- ٣ - عندما ترد كلمة غير مفهومة أقوم بتوضيح معنى هذه الكلمة وتقريب معناها للقارئ؛ لتعم فائدة هذا الكتاب . وعندما أزيد توضيحًا أو معلومات لكلمة ما أضع التوضيح بين قوسين هلالين () .
- ٤ - دققت الكتاب إملائيًا؛ من الهمزات والحركات وعلامات الترقيم وغيرها .
- ٥ - في تفسير القرطبي الكثير من الدرر والفوائد اللغوية - في النحو والبلاغة - وغيرها من الأبيات الشعرية، لكنني لم أذكرها لأن هذه الدرر ليست موجهة فقط لشريحة معينة، أو لمتذوقي الشعر العربي فقط؛ إنما هذه الدرر أردت أن يقرأها ويفهمها كل من قرأ هذا الكتاب .
- والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني، إنه جواد كريم .

إبراهيم محمد اليافعي

جمادى الأولى ١٤٤٣هـ

للتواصل مع المؤلف:

اتصال ٠٠٩٦٧٧١١٦٨٠٧٢

اتصال وواتساب ٠٠٩٦٧٧٣٩٨٠٢١٥٣

من هو الإمام القرطبي؟

هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي .

ولد في قرطبة أوائل القرن السابع الهجري (ما بين ٦٠٠ - ٦١٠هـ)، وعاش بها، ثم انتقل إلى مصر حيث استقر بمُنِيَّة بني خصيب في شمال أسيوط، ويقال لها اليوم: المنيا، وبقي فيها حتى تُوفِّي .

نشأة الإمام القرطبي وتربيته:

أقبل القرطبي منذ صغره على العلوم الدينية والعربية إقبال المحبِّ لها، الشغوف بها؛ ففي قرطبة تعلم العربية والشعر إلى جانب تعلمه القرآن الكريم، وتلقى بها ثقافة واسعة في الفقه والنحو والقراءات وغيرها على جماعة من العلماء المشهورين، وكان يعيش آنذاك في كنف أبيه ورعايته، وبقي كذلك حتى وفاة والده .

وكان إلى جانب تلقيه العلم ينقل الأجرَّ لصنع الخزف في فترة شبابه، وقد كانت صناعة الخزف والفخار من الصناعات التقليدية التي انتشرت في قرطبة آنذاك . وكانت حياته متواضعة .

عاش مأساة الأندلس، فقد بقي بقرطبة حتى سقوطها، وخرج منها نحو عام ٦٣٣هـ، فرحل إلى المشرق طلباً للعلم من مصادره، فانتقل إلى مصر التي كانت محطاً لكثير من علماء المسلمين على اختلاف أقطارهم؛ فدرس على أيدي علمائها، واستقرَّ بها .

ملاحح شخصية الإمام القرطبي وأخلاقه:

١ - زهد القرطبي وورعه:

كان القرطبي - رَحِمَهُ اللهُ - من الزهد والورع بمكان، ومن ثمَّ أثنى عليه المؤرخون لتحليله بهذه الصفات الحميدة؛ قال ابن فرحون: كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمور الآخرة.

ونرى في مطالعتنا لكتب القرطبي نفس العالم الصالح الورع الزاهد في كل صفحة من صفحاتها، فهو يشكو دائماً من كثرة الفساد، وانتشار الحرام، والابتعاد عن الواجبات، والوقوع في المحرمات.

ومن مظاهر ورعه وزهده؛ تصنيفه كتابي (قمع الحرص بالزهد والقناعة) و(التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة). ومن مظاهره أيضاً؛ دُمُّه الغنى الذي يجعل صاحبه مزهواً به، بعيداً عن تعهد الفقراء، ضعيفاً في التوكل على ربِّ الأرض والسماء.

٢ - شجاعة القرطبي وجراته في الحق:

لا غرابة في أن يكون القرطبي شجاع القلب، جريئاً في إعلان ما يراه حقاً؛ لأنه قد اكتسب تلك الأسباب التي تسلحه بهذه الجرأة من علم واسع، وورع مشهود، واستهانة بالدنيا ومظاهرها؛ لهذا كان - رحمه الله تعالى - ممن لا تأخذه في الله لومة لائم؛ ويتمثل هذا في إيمائه في أكثر من موضع في تفسيره إلى أن الحكام في عصره حادوا عن سواء السبيل، فهم يظلمون ويرتشون، وتسود عندهم أهل الكتاب، ومن ثمَّ فهم ليسوا أهلاً للطاعة، ولا للتقدير.

نذكر من ذلك ما كتبه في (التذكرة) إذ يقول: هذا هو الزمان الذي استولى فيه الباطل على الحق، وتغلَّب فيه العبيد على الأحرار من

الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي بذلك منهم الحكام، فصار الحُكم مكسًا، والحق عكسًا لا يوصل إليه، ولا يقدر عليه، بدّلوا دين الله، وغيروا حكم الله، سمّاعون للكذب أكّالون للسحت، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

٣ - الجدية ومضاء العزيمة في حياة القرطبي:

إن الدارس لحياة القرطبي ليعجب كل العجب من حياة الجد والصرامة التي أخذ نفسه بها حتى ألفها؛ فهو - رحمه الله تعالى - قد كرّس حياته للعلم والمطالعة والتأليف، دون أن يُؤثر عنه ملل أو سأم، أو يُعرف عنه أنه كان يتوقف عن ذلك لراحةٍ أو استجمام؛ ولذا وصفه مترجموه بقولهم: أوقاته معمورة ما بين توجُّهه وعبادة وتصنيف.

ولا شك أن جدية إمامنا القرطبي كانت بسبب استشعار قيمة وعظمة ما يدرس ويصنّف، فهو على صلة دائمة مع النصوص الشرعية التي تحت على الصدق في القول والعمل، ومخاطبة الناس بالطيب من القول، وتنهى عن السفه وبذاءة اللسان، وتنفر من الكبر والرياء والنفاق، وتحذر من الافتتان بمباهج الحياة والانسياق وراء مغرياتها. ولا نستغرب ولا تتابنا الدهشة من هذا الخُلُق إذا فهمنا البواعث النفسية التي كانت تسيطر على صاحبنا، فهو كثير الهَمّ على مسلمي عصره، شديد التمسك بسُنّة نبيه، متأثر بما حلّ ببلادهِ، حريص على العلم الشرعي، فضلًا عن تأثره بخُلُق كثير من مشايخه - لا سيما المحدثين منهم - الذين كانوا يتصدرون لتدريس الحديث وروايته، ويحرصون كل الحرص على التقيد بالأداب العامة، ويتشددون في التزامها والتحلي بها؛ كي يكون لهم المهابة والوقار في نفوس مستمعيهم وطلابهم، وحتى لا يكون هناك تناقض بين سلوكهم وأقوالهم، بل هم يشددون على أنفسهم كي يكونوا قدوةً حسنة لتلاميذهم.

٤ - أمانة الإمام القرطبي:

كان القرطبي رحمه الله تعالى يلتزم الأصول العلمية، ويتبع أساليب العلماء الفضلاء الذين لا يعينهم إلا أن يثبتوا الفضل لأهله، ويتورعوا عن أن ينسبوا لأنفسهم ما ليس لهم؛ وهذه هي الأمانة العلمية التي يعمل علماء العالم الآن على تأصيلها، وتثبيت قيمها، واتخاذ أساليب لتنفيذها؛ ولا يتصور أنها تخرج عما ارتضاه الإمام القرطبي لنفسه حين كتب تفسيره؛ حيث قال: وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف إلى قائله.

٥ - اجتهاد الإمام القرطبي وكثرة مطالعته:

ذكر غير واحد من مؤرخي حياة إمامنا القرطبي أن أوقاته كانت معمورة بين توجه للعبادة أو التصنيف؛ وهذا شأن العلماء، وسمة العارفين الفضلاء، ومنشأ هذه الميزة في شخصيته العلمية هي جديته في الحياة، ومضاء عزمته كما ذكرنا.

كان - رحمه الله تعالى - كثير المطالعة، مُجدِّاً في التحصيل، كثير الحديث عما يشكل. وكان يحب الكتب حباً جماً، ويحرص على جمعها واقتنائها، حتى لقد تجمَّع لديه منها مجموعات كثيرة منوَّعة؛ ولو أن باحثاً قام بجمع موارده في تفسيره فقط؛ لتجمَّع لديه الشيء الكثير، والعجب العجاب من آثار المشرقين والمغربيين معاً.

مؤلفات الإمام القرطبي:

ذكر المؤرخون للقرطبي - رَحِمَهُ اللهُ - عدَّة مؤلفات غير تفسيره العظيم (الجامع لأحكام القرآن)؛ ومن هذه المؤلفات:

- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، وهو مطبوع متداول.
- التذكار في أفضل الأذكار، وهو أيضاً مطبوع متداول.
- الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا.
- الإعلام بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام.
- قمع الحرص بالزهد والقناعة وردّ ذل السؤال بالكسب والصناعة.
- وقد أشار القرطبي في تفسيره إلى مؤلفات له، منها: المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس، واللمع اللؤلؤية في شرح العشرينات النبوية، وغيرها من التصانيف.

منهج القرطبي في التفسير:

قدّم المؤلف لتفسيره مقدمة حافلة ببيان فضائل القرآن وآداب حملته، وما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به. ثم أوضح مقصده وباعثه على كتابة هذا التفسير بقوله: وعملته تذكرةً لنفسي، وذخيرةً ليوم رَمْسِي، وعملاً صالحاً بعد موتي. وقد التزم القرطبي في هذا التفسير الأمانة العلمية، والموضوعية في الإفادة من أسلافه؛ فقال: وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائلها، والأحاديث إلى مصنفها؛ فإنه يقال: من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله.

وكان لا يقف في تفسير القرآن عند حدّ ما رُوي من ذلك عن الرسول - ﷺ - والسلف الصالح، بل يتخذ ما أُوتيه من أدوات العلم وسيلةً يستعين بها على فهمه، وكان يقصد إلى تفسير القرآن الكريم ببيان التعبير القرآني وأسواره ومنزلته من الكلام العربي، ومن هنا عني باللغات والإعراب والقراءات؛ كان يورد الآية أو الآيات ويفسرها بمسائل

يجمعها في أبواب، فيقول مثلاً: تفسير سورة الفاتحة، وفيه أربعة أبواب؛ الباب الأول: في فضلها وأسمائها، وفيه سبع مسائل ويذكرها. الباب الثاني: في نزولها وأحكامها، وفيه عشرون مسألة. الباب الثالث: في التأمين، وفيه ثماني مسائل. الباب الرابع: فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب، وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسألة، وهكذا.

وتارةً يكون التفسير بمسائل يعدها على نحو ما تقدم من دون فتح باب، ولا ذكر عنوان. وكان القرطبي في هذه المباحث أو المسائل ينتقل من تفسير المفردات اللغوية وإيراد الشواهد الشعرية، إلى بحث اشتقاق الكلمات وما أخذها، إلى تصريفها وإعلالها، إلى تصحيحها وإعرابها، إلى ما قاله أئمة السلف فيها، إلى ما يختاره المؤلف أحياناً من معانيها. وأحسن المؤلف كل الإحسان بعزو الأحاديث إلى مخرجيها من الصحيحين وأصحاب الكتب الستة وغيرهم.

وكان القرطبي يبين أسباب النزول، ويذكر القراءات واللغات ووجوه الإعراب، وتخريج الأحاديث، وبيان غريب الألفاظ، وتحديد أقوال الفقهاء، وجمع أقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف؛ ثم أكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ونقل عن سبقة في التفسير، مع تعقيبها على ما ينقل عنه، مثل ابن جرير، وابن عطية، وابن العربي، وإلكيا الهراسي، وأبي بكر الجصاص.

وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين والإسرائيليات، وذكر جانباً منها أحياناً؛ كما ردَّ على الفلاسفة والمعتزلة وغلاة المتصوفة وبقية الفرق، ويذكر مذاهب الأئمة ويناقشها، ويمشي مع الدليل، ولا يتعصب لمذهبه المالكي، وقد دفعه الإنصاف إلى الدفاع عن

المذاهب والأقوال التي نال منها ابن العربي المالكي في تفسيره، فكان القرطبي حرًا في بحثه، نزيهًا في نقده، عفيفًا في مناقشة خصومه، وفي جدله، مع إمامه الكافي بالتفسير من جميع نواحيه، وعلوم الشريعة.

وفاة الإمام القرطبي:

في (مُنِيَّة الخصب) بصعيد مصر، كانت وفاة عالمنا الجليل ليلة الإثنين، التاسع من شهر شوال سنة ٦٧١هـ، وقبره بالمنيا شرق النيل. تنويه: نقلت هذه الترجمة من موقع طريق الإسلام على شبكة الإنترنت.





سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

من هذه السورة اخترت هذه الدرر:

الأولى: القول في الاستعاذة:

أمر الله تعالى بالاستعاذة عند أول كل قراءة؛ فقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨).

أي إذا أردت أن تقرأ؛ فأوقع الماضي موقع المستقبل.

وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، وأن كل فعلين تقاربا في المعنى جاز تقديم أيهما شئت؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ (٨). المعنى: فتدلى ثم دنا.

ومثله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (١). [أي؛ انشق القمر واقتربت الساعة]. وهو كثير.

ونظيره في التنزيل في قصة نوح بعد ذكر الطوفان وانقضائه في قوله ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٤٠).

فذكر إهلاك من هلك منهم ثم عطف عليه بقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَحْرِبَهَا وَمُرسِنَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٤١). فذكر الركوب متأخراً في الخطاب، ومعلوم أن ركوبهم كان قبل الهلاك.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ

لَهُ عِوَجًا ﴿١٦﴾ قِيَمًا ﴿١٧﴾ . وتقديره: أنزل على عبده الكتاب قيمًا، ولم يجعل له عوجًا . ومثله في القرآن كثير .

الثانية: قيل: سميت - الفاتحة - بأم القرآن:

لأنها أوله ومنتزمنة لجميع علومه، وبه سميت مكة أم القرى؛ لأنها أول الأرض ومنها دُحيت، ومنه سميت الأمُّ أمًّا؛ لأنها أصل النسل، والأرض أمًّا؛ كما في قول أمية بن أبي الصلت:
فالأرض معقلنا وكانت أمنا فيها مقابرنا وفيها نولدُ .
ويقال لراية الحرب أمٌّ؛ لتقدمها واتباع الجيش لها .

الثالثة: سُميت [سورة الفاتحة] بالقرآن العظيم:

لتضمنها جميع علوم القرآن، وذلك أنها تشتمل على الثناء على الله ﷻ بأوصاف كماله وجلاله، وعلى الأمر بالعبادات والإخلاص فيها، والاعتراف بالعجز عن القيام بشيء منها إلا بإعانتة تعالى، وعلى الابتغال إليه في الهداية إلى الصراط المستقيم، وكفاية أحوال الناكثين، وعلى بيانه عاقبة الجاحدين .

الرابعة: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾

وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين، بأنه الرحمن الرحيم؛ لأنه لما كان في اتصافه بـ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ترهيب قرنه بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه، والرغبة إليه؛ فيكون أعون على طاعته وأمنع؛ كما قال ﴿نِعْمَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا

الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾. وقال ﴿غَافِرٍ
الَّذِينَ وَقَّابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ﴾.

الخامسة: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٤٩﴾.

إن قال قائل: كيف قال مالك يوم الدين ويوم الدين لم يوجد بعد، فكيف وصف نفسه بملك ما لم يوجد؟.

قيل له: اعلم أن مالكا اسم فاعل من ملك يملك، واسم الفاعل في كلام العرب قد يضاف إلى ما بعده؛ وهو بمعنى الفعل المستقبل؛ ويكون ذلك عندهم كلاماً سديداً معقولاً صحيحاً؛ كقولك: هذا ضاربٌ زيد غداً؛ أي سيضرب زيداً.

وكذلك: هذا حاج بيت الله في العام المقبل؛ تأويله سيحج في العام المقبل.

أفلا ترى أن الفعل قد ينسب إليه وهو لم يفعله بعد؟. وإنما أريد به الاستقبال؛ فكذلك قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ على تأويل الاستقبال؛ أي سيملك يوم الدين، أو في يوم الدين إذا حضر.

السادسة: ﴿قَدْ يَقَالُ﴾: لم خصص يوم الدين وهو مالك يوم الدين وغيره؟.

قيل له: لأن في الدنيا كانوا منازعين في المُلْك - مثل فرعون ونمرود وغيرهما - وفي ذلك اليوم لا ينازعه أحد في ملكه، وكلهم خضعوا له؛ كما قال تعالى ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾. فأجاب جميع الخلق ﴿لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ ﴿٤٨﴾.

فذلك قال: مالك يوم الدين؛ أي في ذلك اليوم لا يكون مالك ولا قاضٍ ولا مجازٍ غيره سبحانه لا إله إلا هو.

السابعة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦)

اهدنا: دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب؛ والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم، وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك.

وقيل: اهدنا؛ الأصل فيه الإمالة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاكَ﴾؛ أي ملنا.

وخرج - عليه الصلاة والسلام - في مرضه يتهدى بين اثنين؛ أي يتمايل. ومنه الهدية؛ لأنها تُمال من ملك إلى ملك؛ فالمعنى مل بقلوبنا إلى الحق.

الثامنة: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧)

في هذه الآية رد على القدرية والمعتزلة والإمامية (الاثني عشرية)؛ لأنهم يعتقدون أن إرادة الإنسان كافية في صدور أفعاله منه - طاعة كانت أو معصية -؛ لأن الإنسان عندهم خالق لأفعاله، فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه؛ وقد أكذبهم الله تعالى في هذه الآية، إذ سأله الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون ربه لما سأله الهداية، ولا كرروا السؤال في كل صلاة؛ وكذلك تضرعهم إليه في دفع المكروه، وهو ما يناقض الهداية حيث قالوا:

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٧).

فكما سأله أن يهديهم سأله ألا يضلهم، وكذلك يدعون فيقولون ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨).



سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ومنها جمعت أربعاً وعشرين حرة:

❁ الأولى: ﴿هُدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٢).

الهُدَى هديان: هدى دلالة [وإرشاد]؛ وهو الذي تقدر عليه الرسل وأتباعهم.

قال الله تعالى ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (٧). وقال ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٢).

فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه؛ وتفرد هو سبحانه بالهدى [الثاني]؛ الذي معناه التأييد والتوفيق؛ فقال لنبيه ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب؛ ومنه قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾. وقوله ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

❁ الثانية: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٦).

خص الله تعالى المتقين بهدايته - وإن كان هدى للخلق أجمعين - تشريفاً لهم؛ لأنهم آمنوا وصدقوا بما فيه.

وروي عن أبي روق أنه قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي كرامة لهم؛ يعني إنما أضاف إليهم إجلالاً لهم وكرامة لهم وبياناً لفضلهم.

الثالثة: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣).

ينفقون: يخرجون. والإنفاق: إخراج المال من اليد. ومنه نفق البيع؛ أي خرج من يد البائع إلى المشتري. ونفقت الدابة: خرجت روحها. ومنه النافقاء لجحر [وبيت] اليربوع الذي يخرج منه إذا أخذ من جهة أخرى. ومنه المنافق؛ لأنه يخرج من الإيمان، أو يخرج الإيمان من قلبه.

وأنفق القوم: فني زادهم. ومنه قوله تعالى ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾.

قال علماءنا: إن في قوله تعالى ﴿هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ رداً على القدرية في قولهم: يخلقون إيمانهم وهداهم. تعالى الله عن قولهم. ولو كان كما قالوا لقال: من أنفسهم.

الرابعة: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

قال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرین والموت والقساوة والانصراف والحمية والإنكار.

فقال في الإنكار (بل قلوبهم منكروة وهم مستكبرون).

وقال في الحمية ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.

وقال في الانصراف ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا قُلُوبُهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧).

وقال في القساوة ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّفْسِئَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾. وقال ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾.

وقال في الموت ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ .

وقال ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ .

وقال في الران ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٤) .

وقال في المرض ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ .

وقال في الضيق ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ .

وقال في الطبع ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٣) .

وقال ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ .

وقال في الختم ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ .

وفي هذه الآية أدل دليل وأوضح سبيل على أن الله سبحانه خالق الهدى والضلال، والكفر والإيمان، فاعتبروا أيها السامعون، وتعجبوا أيها المفكرون من عقول القدرية القائلين بخلق إيمانهم وهداهم، فإن الختم هو الطبع فمن أين لهم الإيمان ولو جهدوا؛ وقد طبع على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة. فمتى يهتدون، أو من يهديهم من بعد الله؛ إذا أضلهم وأصمهم وأعمى أبصارهم؟! ﴿وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ (١٣) .

الخامسة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم

بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) .

قال علماء اللغة: إنما سمي المنافق منافقًا؛ لإظهاره غير ما يضمّر، تشبيهاً باليربوع (نوع من أنواع الفئران) له جُحر يقال له: النافق؛ وذلك أنه يخرق الأرض حتى إذا كاد يبلغ ظاهر الأرض أرقّ التراب، فإذا رابه ريب دفع ذلك التراب برأسه فخرج، فظاهر جحره تراب، وباطنه حفر. وكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر.

السادسة: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥).

أي ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم، فسمى العقوبة باسم الذنب.

هذا قول الجمهور من العلماء، والعرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم؛ من ذلك قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلاً أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا.

فسمى انتصاره جهلاً، والجهل لا يفتخر به ذو عقل، وإنما قاله ليزدوج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما.

وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء ذكره بمثل لفظه وإن كان مخالفاً له في معناه؛ وعلى ذلك جاء القرآن والسنة.

قال الله ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا﴾. وقال ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُّوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾.

والجزاء لا يكون سيئة، والقصاص لا يكون اعتداء؛ لأنه حق وجب.

ومثله ﴿وَمَكْرُؤٌ وَّمَكْرٌ لِّلَّهِ﴾.

وكذلك ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ (١٥) و﴿وَإَكِيدُ كَيْدًا﴾ (١٦).

وأيضاً ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. وليس منه سبحانه مكر ولا هزء ولا كيد؛ إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم.

وكذلك ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.

وقوله ﴿فَيَسْحَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إن الله لا يمل حتى تملوا، ولا يسأم حتى تسأموا». متفق عليه.

قيل: حتى بمعنى الواو؛ أي وتملوا. وقيل: المعنى وأنتم تملون.

وقيل: المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل.

السابعة: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

قال مالك بن أنس - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يُورث جلساءه من بعده لا أدري؛ حتى يكون أصلاً في أيديهم، فإذا سُئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري.

وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سُئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين؛ وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم.

قال ابن عبد البر: من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم.

روى يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت ابن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف.

قلت - أي القرطبي - هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمرء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغن؛ وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى.

أين هذا مما روي عن عمر - رضي الله عنه - وقد قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي العصبه - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال. فقامت امرأة من صوب النساء فقالت: ما ذلك لك. قال: ولم؟. قالت: لأن الله سبحانه يقول:

﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾. فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ.

وروى وكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي قال: سألت رجل عليًا - رضي الله عنه - عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين؛ ولكن كذا وكذا. فقال علي: أصبت وأخطأت، وفوق كل ذي علم عليم.

وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال: لما رحلت إلى المشرق نزلت القيروان (مدينة في تونس بناها الفاتح المسلم عقبة بن نافع سنة ٥٠ للهجرة) فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد، ثم رحلت إلى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت إليه لتمام حديث مسدد، فقرأت عليه فيه يومًا حديث النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قدم عليه قوم من مضر من مجتابي النمار فقال: إنما هو مجتابي الثمار. فقلت: إنما هو «مجتابي النمار»، هكذا قرأته على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال لي:

بدخولك العراق تعارضنا وتفخر علينا أو نحو هذا. ثم قال لي: قم بنا إلى ذلك الشيخ - لشيخ كان في المسجد - فإن له بمثل هذا علمًا. فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال: إنما هو «مجتابي النمار» - كما قلت - وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة، جيوبهم أمامهم. والنمار جمع نمرة. (النمار؛ نوع من أنواع ثياب العرب).

فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه: رغم أنفي للحق، رغم أنفي للحق. وانصرف.

الشامنة: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال عليه الصلاة والسلام: «رأيت ليلة أُسري بي رجلاً تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟» فقال: الخطباء من أمتك؛ يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون».

قلت - أي القرطبي - فقد دل الحديث الصحيح وألفاظ الآية على أن عقوبة من كان عالماً بالمعروف وبالمنكر وبوجوب القيام بوظيفة كل واحد منهما أشد ممن لم يعلمه وإنما ذلك؛ لأنه كالمستهين بحرمان الله تعالى ومستخف بأحكامه.

قلت - المؤلف -: في هذا المقام تذكرت حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قال: قال عليه الصلاة والسلام:

«يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيُلقي في النار، فتندلق أفتاب بطنه (أي تنزل أمعاء بطنه) في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟».

أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية». رواه البخاري ومسلم.

التاسعة: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (٤٥).

قال سهل بن عبد الله: لا يكون خاشعاً حتى تخشع كل شعرة على جسده. لقول الله تبارك وتعالى: ﴿نَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾.

وهذا هو الخشوع المحمود؛ لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر فلا يملك صاحبه دفعه؛ فتراه مُطْرِقًا متأدبًا متذللاً.

وقد كان السلف يجتهدون في ستر ما يظهر من ذلك؛ وأما [الخشوع] المذموم فتكلفه والتباكي، ومطأطأة الرأس كما يفعله الجهال؛ ليرَوْا بعين البر والإجلال؛ وذلك خدع من الشيطان، وتسويل من نفس الإنسان. فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه؛ فإنما أظهر نفاقاً على نفاق.

العاشرة: ﴿بِأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْفُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٤).

قال ابن عباس: كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ: راعنا. على جهة الطلب والرغبة - من المراعاة -؛ أي التفت إلينا، وكان هذا بلسان اليهود سباً؛ أي اسمع لا سمعت، فاغتموها وقالوا: كنا نسبه سراً فالآن نسبه جهراً، فكانوا يخاطبون بها النبي ﷺ - ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان يعرف لغتهم، فقال لليهود:

عليكم لعنة الله! لئن سمعتها من رجل منكم يقولها للنبي ﷺ - لأضربن عنقه. فقالوا: أولستم تقولونها؟. فنزلت الآية. ونهوا عنها؛ لئلا تقتدي بها اليهود في اللفظ وتقصد المعنى الفاسد فيه.

وفي هذه الآية دليلان؛ أحدهما:

على تجنب الألفاظ المحتملة التي فيها التعريض للتنقيص.

الدليل الثاني: التمسك بسد الذرائع وحماتها وهو مذهب مالك وأصحابه وأحمد بن حنبل في رواية عنه، وقد دلَّ على هذا الأصل الكتاب والسنة. والذريعة عبارة عن أمر غير ممنوع لنفسه يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع.

أما الكتاب فهذه الآية؛ ووجه التمسك بها أن اليهود كانوا يقولون ذلك وهي سبّ بلغتهم، فلما علم الله ذلك منهم منع من إطلاق ذلك اللفظ؛ لأنه ذريعة للسب.

وقوله تعالى ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

فمنع من سب آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك.

وأما السنة فأحاديث كثيرة ثابتة صحيحة؛ منها: حديث عائشة - رضي الله عنها - أن أم حبيبة وأم سلمة - رضي الله عنهما - ذكرتا كنيسة رأياها بالحبشة فيها تصاوير [فذكرتا ذلك] لرسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال:

«إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات؛ بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله». أخرجہ البخاري ومسلم.

قال علماؤنا: ففعل ذلك أوائلهم ليتأنسوا برؤية تلك الصور، ويتذكروا أحوالهم الصالحة؛ فيجتهدون كاجتهادهم ويعبدون الله عز وجل عند قبورهم، فمضت لهم بذلك أزمان، ثم إنهم خلف من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم، ووسوس لهم الشيطان بأن آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصورة؛ فعبدها.

وروى مسلم عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه...». فممنوع من الإقدام على الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات؛ وذلك سداً للذريعة.

وقال ﷺ: «إن من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا: يا رسول الله: وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه». فجعل التعرض لسب الآباء كسب الآباء.

الحادية عشر: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩).

العفو: ترك المؤاخذة بالذنب.
والصفح: إزالة أثره من النفس.

الثانية عشرة: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤).

إذا كان الله تعالى يحييهم بعد الموت ليرزقهم، فيجوز أن يحيي الكفار ليعذبهم، ويكون فيه دليل على عذاب القبر. والشهداء أحياء كما قال الله تعالى.

الثالثة عشرة: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١٥٦).

جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأً لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين؛ لما جمعت من المعاني المباركة.

فإن قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾؛ توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾؛ إقرار بالهلاك على أنفسنا، والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

الرابعة عشرة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أخبر تعالى بأن الشيطان عدو، وخبر [الله] حق وصدق.

فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم، وبذل نفسه وعمره في إفساد أحوال بني آدم؛ وقد أمر الله تعالى بالحدز منه فقال جل من قائل:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (١٧٨) **إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ** (١٦٩). وقال ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾. وقال ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٦٠). وقال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخُبْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ (٩١). وقال ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾. وقال ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦١). وهذا غاية في التحذير، ومثله في القرآن كثير.

الخامسة عشرة: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

شبه تعالى واعظ الكفار وداعيهم وهو محمد - ﷺ - بالراعي الذي ينعق بالغنم والإبل؛ فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم ما يقول.

هكذا فسره ابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدي والزجاج والفراء وسيبويه؛ وهذه نهاية الإيجاز.

قال سيبويه: لم يُشَبَّهوا بالناعق إنما شبهوا بالمنعوق به.

والمعنى: ومثلك يا محمد ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به من البهائم التي لا تفهم.

السابعة عشرة: ﴿لَيْسَ آلِيَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ فَبَلَّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ آلِيَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

قال علماؤنا: هذه آية عظيمة من أمهات الأحكام؛ لأنها تضمنت ست عشرة قاعدة:

الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته والنشر والحشر والميزان والصراف والحوض والشفاعة والجنة والنار والملائكة والكتب المنزلة وأنها حق من عند الله والنبیین وإنفاق المال فيما يعين من الواجب والمندوب وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل، والسائل، وفك الرقاب، والمحافضة على الصلاة وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد، وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب.

السابعة عشرة: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

البأساء: أي الشدة والفقر، والضراء: أي المرض، وحين البأس: أي وقت الحرب.

الثامنة عشرة: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧٩).

والمعنى: أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم فيه؛ ازدجر من يريد قتل آخر، مخافة أن يُقتص منه فحيا بذلك معاً.

وكانت العرب إذا قتل الرجل الآخر حمي قبيلاهما وقاتلوا؛ وكان ذلك داعياً إلى قتل العدد الكثير، فلما شرع الله القصاص؛ قنع الكل به وتركوا الاقتتال؛ فلهم في ذلك حياة.

التاسعة عشرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟! .

قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها، وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس.

وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة؛ وذلك كالسحر، ووقت الفطر، وما بين الأذان والإقامة، وأوقات الاضطراب، وحالة السفر والمرض، وعند نزول المطر، والصف في سبيل الله. كل هذا جاءت به الآثار.

العشرين: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٩٥).

عن أسلم أبي عمران قال: غزونا القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن الوليد، والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه! [تُقَالُ لِلتَّعَجُّبِ وَالِاسْتِنْكَارِ] لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة! فقال أبو أيوب الأنصاري: سبحان الله! أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار لما نصر الله نبيه وأظهر دينه، قلنا:

هَلَمْ نَقِيمَ فِي أَمْوَالِنَا وَنَصَلِحَهَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ وَجَّكَ ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ...﴾ (١٩٥). والإلقاء باليد إلى التهلكة؛ أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد، فلم يزل أبو أيوب مجاهدًا في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية. رواه أبو داود والحاكم.

فقبر - أبي أيوب الأنصاري - هناك.

فأخبرنا أبو أيوب أن الإلقاء باليد إلى التهلكة هو ترك الجهاد في سبيل الله، وأن الآية نزلت في ذلك.

الحادية والعشرين: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٠).

هذه الآية من جوامع الدعاء التي عمت الدنيا والآخرة.

قيل لأنس: ادع الله لنا، فقال: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. قالوا: زدنا. قال: ما تريدون قد سألت الدنيا والآخرة!.

وفي الصحيحين عن أنس قال: كان أكثر دعوة يدعو بها النبي ﷺ يقول: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار.

❁ الثانية والعشرين: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ .

والمعنى عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تغلبون وتظفرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة [والراحة] وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تُغلبون وتُذَلَّون ويذهب أمركم .

وهذا [الكلام] صحيح لا غبار عليه، كما انفق في بلاد الأندلس؛ تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار؛ فاستولى العدو على البلاد، وأي بلاد؟! . وأسر وقتل وسبى واسترق، فإنا لله وإنا إليه راجعون! ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته! .

❁ الثالثة والعشرين: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَىٰ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٢٢﴾﴾ .

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فمن أنفق في سبيل الله ولم يتبعه منًّا ولا أذىً؛ كقوله: ما أشد إلحاحك، وخلصنا الله منك، وأمثال هذا؛ فقد تضمن الله له بالأجر - والأجر الجنة -، ونفى عنه الخوف بعد موته لما يُستقبل، والحزن على ما سلف من دنياه؛ لأنه يغتبط بآخرته؛ فقال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٢٢﴾﴾ . وكفى بهذا فضلاً وشرفاً للنفقة في سبيل الله تعالى .

الرابعة والعشرين: ﴿وَأِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٣٨٦﴾﴾ .

اعلم أن الذي أمر الله تعالى به من الشهادة والكتابة لمراعاة صلاح ذات البين، ونفي التنازع المؤدي إلى فساد ذات البين؛ لئلا يسؤل له الشيطان جحود الحق وتجاوز ما حد له الشرع، أو ترك الاقتصار على المقدار المستحق؛ ولأجله حرم الشرع [اليوع] المجهولة التي اعتيادها يؤدي إلى الاختلاف وفساد ذات البين، وإيقاع التضامن والتباين .

فمن ذلك ما حرمه الله من الميسر والقمار وشرب الخمر بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ...﴾ (٩١)؛ فمن تأدب بأدب الله في أوامره وزواجره حاز صلاح الدنيا والدين. قال الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَلَوِينًا﴾ (١٦) .

ولما أمر الله تعالى [بالكتابة] والإشهاد وأخذ الرهان كان ذلك نصًا قاطعًا على مراعاة حفظ الأموال وتنميتها، وردًا على الجهلة المتصوفة ورعاعها الذين لا يرون ذلك؛ فيخرجون عن جميع أموالهم ولا يتركون كفاية لأنفسهم وعيالهم، ثم إذا احتاج وافترق عياله؛ فهو إما أن يتعرض لمنن الإخوان أو لصدقاتهم، أو أن يأخذ من أرباب الدنيا وظلمتهم؛ وهذا الفعل مذموم منهي عنه .

قال أبو الفرج الجوزي: ولست أعجب من المتزهدين الذين فعلوا هذا مع قلة علمهم؛ إنما أتعجب من أقوام لهم علم وعقل كيف حثوا على هذا، وأمروا به مع مصادته للشرع والعقل .



سُورَةُ الْعَمْرَانِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابًا بِأَلْقَسِطٍ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء.

وقال في شرف العلم لنبيه - ﷺ - ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٤﴾﴾.

فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه - ﷺ - أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم.

وقال - ﷺ - : «إن العلماء ورثة الأنبياء». رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحل لهم في الدين خطير.

❁ الثانية: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ، قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً
إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾﴾.

فالواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه ودينياه؛ حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه؛ ألا ترى قول

زكريا ﴿وَجَعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ . وقال ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ . وقال ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ .

ودعا رسول الله - ﷺ - لأنس فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه». رواه البخاري ومسلم.

الثالثة: ﴿هَتَأَنْتُمْ هَتُولَاءَ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

في الآية دليل على المنع من الجدل لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده؛ فقال ﷺ ﴿هَتَأَنْتُمْ هَتُولَاءَ حَجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ .

وقد ورد الأمر بالجدال لمن عِلِمَ وأيقن؛ فقال تعالى ﴿وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

وروي عن النبي - ﷺ - أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال: يا رسول الله، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود. فقال رسول الله - ﷺ -: «هل لك من إبل؟». قال نعم. قال: «ما ألوانها؟». قال: حُمر. قال «هل فيها من أورق؟». (أي رمادي بين الأسود والأبيض). قال نعم. قال «فمن أين ذلك؟». قال: لعل عرقاً نزعته. فقال رسول الله - ﷺ -: «وهذا الغلام لعل عرقاً نزعته». متفق عليه.

وهذا حقيقة الجدل ونهاية في تبين الاستدلال من رسول الله - ﷺ - .

(أي ولدت زوجته غلاماً أسود بينما الأب أبيض. فقال عليه الصلاة والسلام: «وهذا الغلام لعل عرقاً نزعته». أي ربما كان من سلالة أجداده - من جهة أبيه أو أمه - أسود اللون فجاء لونه مثل جده.)

الرابعة: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُتِينَ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾﴾ .

ليس في هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم، خلافاً لمن ذهب إلى ذلك؛ لأن فساق المسلمين يوجد فيهم من يؤدي الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولاً .

فطريق العدالة والشهادة ليس يجزئ فيه أداء الأمانة في المال من جهة المعاملة والوديعة؛ ألا ترى قولهم (ليس علينا في الأميين سبيل). فكيف يعدل من يعتقد استباحة أموالنا وحرماننا بغير حرج عليه؟ . ولو كان ذلك كافياً في تعديلهم لسُمعت شهادتهم على المسلمين .

الخامسة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ .

نهى الله ﷻ المؤمنين - بهذه الآية - أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم .

وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء .

السادسة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ .

جاء في فضل الرباط أحاديث كثيرة؛ منها ما رواه البخاري عن

سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله - ﷺ - قال: «رباط يوم في سبيل الله خير عند الله من الدنيا وما فيها».

وفي صحيح مسلم عن سلمان - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:

«رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان». (أمن الفتان؛ أي لا يسأله الملكان في القبر).

وروى أبو داود في سننه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله - ﷺ - قال:

«كل ميت يُختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله؛ فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبر».

وفي هذه الأحاديث دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التي يبقى ثوابها بعد الموت.

والرباط يُضاعف أجره إلى يوم القيامة؛ لأنه لا معنى للنماء إلا المضاعفة، وهي غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هي فضل دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة.

وهذا لأن أعمال البر كلها لا يُتمكّن منها إلا بالسلامة من العدو والتحرز منه بحراسة بيضة الدين وإقامة شعائر الإسلام.

وهذا العمل الذي يجري عليه ثوابه هو ما كان يعمل من الأعمال الصالحة؛ خرّجه ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن رسول الله - ﷺ - قال: «من مات مرابطاً في سبيل الله أُجرى عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع».

وفي هذا الحديث قيد ثانٍ؛ وهو الموت حالة الرِّباط. والله أعلم.
[القيد الأول: الرباط في سبيل الله. القيد الثاني: الموت أثناء
الرباط].

عن عثمان بن عفان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قال: سمعت رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: «من رباط ليلة في سبيل الله كانت له كألف ليلة؛ صيامها وقيامها».





سُورَةُ النِّسَاءِ

وقد جمعت منها هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ إلى قوله ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّتِهِ يُوصَى بِهَا أَوْ دِينٍ﴾.

إن قيل: ما الحكمة في تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين، والدين مقدم عليها بإجماع؟.

الجواب من عدة أوجه:

أولاً: لما كانت الوصية أقل لزوماً من الدين قدمها اهتماماً بها.

ثانياً: قدمها لكثرة وجودها ووقوعها؛ فصارت كاللزام لكل ميت مع نص الشرع عليها، وأخر الدين لشذوذه (أي؛ لندرته)، فإنه قد يكون وقد لا يكون؛ فبدأ بذكر الذي لا بد منه، وعطف بالذي قد يقع أحياناً.

ثالثاً: إنما قُدمت الوصية إذ هي حظ مساكين وضعفاء، وأخر الدين إذ هو حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان وله فيه مقال.

رابعاً: لما كانت الوصية يُنشئها من قبل نفسه قدمها، والدين ثابت مؤدى، ذكره أو لم يذكره.

❁ الثانية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

أمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن؛ لتكون أدمة

ما بينهم وصحبتهم على الكمال، فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش...

قال يحيى بن عبد الرحمن الحنظلي: أتيت محمد بن الحنفية فخرج إليّ في ملحفة حمراء ولحيته تقطر من الغالية (الغالية؛ خليط من الطيب؛ كالمسك والعنبر)، فقلت: ما هذا؟. قال: إن هذه الملحفة ألقتها عليّ امرأتي ودهنتني بالطيب، وإنهن يشتهين منّا ما نشتهيه منهن.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إني أحب أن أتزين لامرأتي كما أحب أن تتزين المرأة لي.

الثالثة: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

قال الضحاك: بالبينة على المدعي واليمين على من أنكر.

وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام [والقضاة]، ويدخل في ذلك بالمعنى جميع الخلق. قال رضي الله عنه:

«إن المقسطين يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا».

وقال عليه الصلاة والسلام «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه؛ ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».

فجعل في هذه الأحاديث الصحيحة كل هؤلاء رعاة وحكاماً.

وكذلك العالم الحاكم؛ لأنه إذا أفتى حكم وقضى وفصل بين الحلال والحرام، والفرض والندب، والصحة والفساد؛ فجميع ذلك أمانة تُؤدَّى وحكمٌ يُقضى.

الرابعة: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨).

وصف الله تعالى نفسه بأنه سميع بصير يسمع ويرى؛ كما قال تعالى ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مَسْمُوعٌ وَرَأْيٌ﴾ (٤٦). والعقل يدل على ذلك؛ فإن انتفاء السمع والبصر يدل على نقيضيهما من العمى والصمم، إذ المحل القابل للضدين لا يخلو من أحدهما، وهو تعالى مقدس عن النقائص، ويستحيل صدور الأفعال الكاملة من المتّصف بالنقائص؛ كخلق السمع والبصر ممن ليس له سمع ولا بصر.

وأجمعت الأمة على تنزيهه تعالى عن النقائص.

الخامسة: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلِيَانَا﴾ (٧٥).

حث على الجهاد؛ وهو يتضمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين؛ الذين يسومونهم سوء العذاب، ويفتنونهم عن الدين؛ فأوجب تعالى الجهاد؛ لإعلاء كلمته، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلفُ النفوس.

وتخليص الأسارى واجب على جماعة المسلمين؛ إما بالقتال وإما بالأموال؛ وذلك أوجب؛ لكونها دون النفوس؛ إذ هي أهون منها.

قال [الإمام] مالك: واجب على الناس أن يفتدوا الأسارى بجميع أموالهم. وهذا لا خلاف فيه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام «فكوا العاني». (أي الأسير). متفق عليه.

السادسة: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
أَخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (٨٢).

دلت هذه الآية، وقوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ
أَقْفَالًا﴾ (٢٤). على وجوب التدبر في القرآن ليعرف معناه. فكان في هذا رد على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ، ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب، وفيه دليل على الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال التقليد.

السابعة: ﴿فَقِنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفْ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِيصَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى
اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًّا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ (٨٤).

إن قال قائل: نحن نرى الكفار في بأس وشدة، وقتلهم: إن عسى بمعنى اليقين فأين ذلك الوعد؟ قيل له: قد وجد هذا الوعد ولا يلزم وجوده على الاستمرار والدوام، فمتى وجد ولو لحظة مثلاً؛ فقد صدق الوعد؛ فألقى الله في قلوب الأحزاب الرعب وانصرفوا من غير قتل ولا قتال؛ كما قال تعالى ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾.

وخرج اليهود من ديارهم وأموالهم بغير قتال المؤمنين لهم [مثل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ويهود خيبر]؛ فهذا كله بأس قد كفه الله عن المؤمنين، وقد دخل من اليهود والنصارى العدد الكثير والجم الغفير تحت الجزية صاغرين وتركوا المحاربة داخرين؛ فكف الله بأسهم عن المؤمنين. والحمد لله رب العالمين.





سُورَةُ الْمَائِدَةِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

قال ابن خويز منداد في أحكامه: والتعاون على البر والتقوى يكون بوجوه؛ فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه؛ فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين (أي متعاونين) كاليد الواحدة. المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ويجب الإعراض عن المتعدي، وترك النصرة له، ورده عما هو عليه.

❁ الثانية: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾.

في هذه الآية دليل على أن العالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل؛ لأن الكلب إذا عُلِّم يكون له فضيلة على سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، لا سيما إذا عمل بما عِلِّم؛ وهذا كما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: لكل شيء قيمة وقيمة المرء ما يحسنه.

الثالثة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

تضمنت هذه الآية البيان عن حال الحاسد؛ حتى إنه قد يحمله حسده على إهلاك نفسه بقتل أقرب الناس إليه قرابة، وأمسه به رحماً، وأولاهم بالحنو عليه ودفعت الأذية عنه.

الرابعة: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

قال ابن عطية: والإجماع منعقد على أن النهي عن المنكر فرض لمن أطاقه وأمن الضرر على نفسه وعلى المسلمين؛ فإن خاف فينكر بقلبه ويهجر ذا المنكر ولا يخالطه.

وقال حذاق أهل العلم: وليس من شرط الناهي أن يكون سليماً عن معصية؛ بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً.

وفي الآية دليل على النهي عن مجالسة المجرمين، والأمر بتركهم وهجرانهم.

الخامسة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: في هذه الآية - وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها - رد على غلاة المتزهدين، وعلى أهل البطالة من المتصوفين؛ إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه، وحاد عن تحقيقه.

قال الطبري: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شيء مما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه - من طيبات المطاعم والملابس والمناكح - إذا

خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنت والمشقة؛ ولذلك رد النبي - ﷺ - التبتل على [عثمان] بن مظعون - رضى الله عنه - [عندما أراد ترك النساء والتفرغ للعبادة]؛ فقال له ﷺ والسلام: يا عثمان! أرغبت عن سنتي؟! قال: لا يا رسول الله!. قال: «إن من سنتي أن أصلي وأنام، وأصوم وأطعم، وأنكح وأطلق؛ فمن رغب عن سنتي؛ فليس مني. يا عثمان! إن لأهلك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا».

فثبت أنه لا فضل في ترك شيء مما أحله الله لعباده، وأن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه، وعمل به رسول الله - ﷺ - وسنته لأمته، واتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون؛ إذ كان خير الهدي هدي نبينا محمد - ﷺ -، فإذا كان كذلك؛ تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله، وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذرًا من عارض الحاجة إلى النساء.

[وأضاف الطبري رضى الله عنه]: فإن ظن ظان أن الخير في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ؛ وذلك أن الأولى بالإنسان صلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها، ولا شيء أضر للجسم من المطاعم الرديئة؛ لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سببًا إلى طاعته.

وقد جاء رجل إلى الحسن البصري - رضى الله عنه - فقال: إن لي جارًا لا يأكل الفالودج (نوع فاخر من أنواع الحلوى) فقال: ولم؟ قال: يقول لا يؤدي شكره؛ فقال الحسن:

أفيشرب الماء البارد؟ فقال: نعم. فقال: إن جارك جاهل؛ فإن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر من نعمته عليه في الفالودج.

السادسة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾ .

تحريم الخمر كان بتدرج ونوازل كثيرة؛ فإنهم كانوا مولعين بشربها، وأول ما نزل في شأنها ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ .

أي: [منافع] في تجارتهم .

فلما نزلت هذه الآية تركها بعض الناس وقالوا: لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير، ولم يتركها بعض الناس، وقالوا: نأخذ منفعتها ونترك إثمها؛ فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ .؛ فتركها بعض الناس، وقالوا: لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة، وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة؛ حتى نزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ .؛ فصارت حراماً عليهم؛ حتى صار يقول بعضهم: ما حرم الله شيئاً أشد من الخمر .

وهذه الآية [أيضاً] تدل على تحريم اللعب بالنرد والشطرنج قماراً أو غير قمار؛ لأن الله تعالى لما حرم الخمر أخبر بالمعنى الذي فيها فقال ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ... ﴿٩٠﴾﴾ . ثم قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ... ﴿٩١﴾﴾ .

فكل لهو دعا قليله إلى كثير، وأوقع العداوة والبغضاء بين العاكفين عليه، وصد عن ذكر الله وعن الصلاة؛ فهو كشرب الخمر، وأوجب أن يكون حراماً مثله .

فإن قيل: إن شرب الخمر يورث السكر فلا يُقدر معه على الصلاة، وليس في اللعب بالنرد والشطرنج هذا المعنى. قيل له: قد جمع الله تعالى بين الخمر والميسر في التحريم، ووصفهما جميعاً بأنهما يوقعان العداوة والبغضاء بين الناس، ويصدان عن ذكر الله وعن الصلاة؛ ومعلوم أن الخمر إن أسكرت فالميسر لا يُسكر، ثم لم يكن عند الله افتراقهما في ذلك يمنع من التسوية بينهما في التحريم لأجل ما اشتركا فيه من المعاني، وأيضاً فإن قليل الخمر لا يسكر كما أن اللعب بالنرد والشطرنج لا يُسكر، ثم كان حراماً مثل الكثير، فلا يُنكر أن يكون اللعب بالنرد والشطرنج حراماً مثل الخمر وإن كان لا يسكر.

وأيضاً فإن ابتداء اللعب يورث الغفلة؛ فتقوم تلك الغفلة المستولية على القلب مكان السكر؛ فإن كانت الخمر إنما حرمت لأنها تُسكر فتصد بالإسكار عن الصلاة، فليُحرم اللعب بالنرد والشطرنج؛ لأنه يُغفل ويلهي؛ فيصد بذلك عن الصلاة. والله أعلم.





سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: [بين يدي السورة].

قال العلماء: هذه السورة أصل في محاكاة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور؛ وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في معنى واحد من الحجة؛ وعليها بنى المتكلمون أصول الدين؛ لأن فيها آيات بينات ترد على القدرية دون السور التي ستذكر والمذكورات، وسنزيد ذلك بياناً - إن شاء الله - بحول الله تعالى.

❁ الثانية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾.

قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.؛ أخبر عن قدرته وعلمه وإرادته؛ فقال: الذي خلق؛ أي: اخترع وأوجد وأنشأ وابتدع؛ وذلك دليل على حدوثهما؛ فرفع السماء بغير عمد، وجعلها مستوية، وجعل فيها الشمس والقمر آيتين، وزينها بالنجوم، وأودعها السحاب والغيوم علامتين، وبسط الأرض وأودعها الأرزاق والنبات، وبث فيها من كل دابة آيات، وجعل فيها الجبال أوتاداً، وسبلاً فجاءاً، وأجرى فيها الأنهار والبحار، وفجّر فيها العيون من الأحجار؛ دلالات على وحدانيته، وعظيم قدرته، وأنه هو الله الواحد القهار، وبين بخلقه السماوات والأرض أنه خالق كل شيء.

الثالثة: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (١١٠).

أي: قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين المستسخرين المكذابين: سافروا في الأرض فانظروا واستخبروا لتعرفوا ما حل بالكفرة قبلكم من العقاب وأليم العذاب. وهذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم، وأهل الديار، والعاقبة آخر الأمر.

الرابعة: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

إذا ثبت أن له ما في السماوات والأرض وأنه خالق الكل - إما باعترافهم أو بقيام الحجة عليهم - فالله قادر على أن يعاجلهم بالعقاب، ويبعثهم بعد الموت؛ ولكنه كتب على نفسه الرحمة؛ أي: وعد بها فضلاً منه وكرماً؛ فلذلك أمهل.

ومعنى الكلام الاستعطف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة.

في صحيح مسلم، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلب غضبي».

الخامسة: ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (١١٥).

والمعنى: [يا أيها الرسول قل لقومك] اثبتوا على ما أنتم عليه فأنأ اثبت على ما أنا عليه [من الدين الحق].

فإن قيل: كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار؟. فالجواب أن هذا تهديد؛ كما قال رَبِّكَ ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾. ودل عليه ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾.

أي العاقبة المحمودة التي يُحمدُ صاحبُها عليها؛ أي من له النصر في دار الإسلام، ومن له وراثه الأرض، ومن له الدار الآخرة؛ أي الجنة.

السادسة: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّدُكُونِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَيْنَا أَرْوَجِنَا وَإِن يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُم حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (١٢٩).

في الآية دليل على أن العالم ينبغي له أن يتعلم قول من خالفه وإن لم يأخذ به؛ حتى يعرف فساد قوله، ويعلم كيف يرد عليه؛ لأن الله تعالى أعلم النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه قول من خالفهم من أهل زمانهم؛ ليعرفوا فساد قولهم.

السابعة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

أي بما فيه صلاحه وتشميره؛ وذلك بحفظ أصوله وتشمير فروعه. وهذا أحسن الأقوال في هذا؛ فإنه جامع.

قال مجاهد: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن؛ بالتجارة فيه، ولا تشتري منه ولا تستقرض.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. يعني قوته، وقد تكون في البدن، وقد تكون في المعرفة بالتجربة، ولا بد من حصول الوجهين؛ فإن الأشد وقعت هنا مطلقة، وقد جاء بيان حال اليتيم في سورة النساء مقيدة؛ فقال:

﴿وَابْتَلُوا الْيَتِيمَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنَّ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ (وابتلوا؛ أي
 اختبروا وجربوا)؛ فجمع بين قوة البدن وهو بلوغ النكاح، وبين قوة
 المعرفة وهو إيناس الرشد؛ فلو مكن اليتيم من ماله قبل حصول المعرفة
 وبعد حصول القوة؛ لأذهب في شهوته، وبقي صعلوكًا لا مال له.
 وخص [الله] اليتيم بهذا الشرط؛ لغفلة الناس عنه، وافتقاد الأبناء
 لأبائهم؛ فكان الاهتبال بفقيد الأب أولى. وليس بلوغ الأشد مما يبيح
 قرب ماله بغير الأحسن؛ لأن الحرمة في حق البالغ ثابتة. وخص اليتيم
 بالذكر لأن خصمه الله.





سُورَةُ الْأَعْرَافِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿قَالَ فِيمَا آغُوتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾.

لأقعدن لهم صراطك المستقيم؛ أي بالصد عنه، وتزيين الباطل؛ حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلّوا كما ضل، أو يخيبوا كما خيب.

❁ الثانية: ﴿وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

وهو يكون في السلعة بالتعييب والتزهد فيها، أو المخادعة عن القيمة، والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه؛ وكل ذلك من أكل المال بالباطل؛ وذلك منهي عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم -، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

❁ الثالثة: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

قال السدي: كانوا عشارين (أي يأخذون الضرائب من الناس؛ حيث يأخذون العُشر من البضاعة؛ فاشتبهوا بالعشارين؛ أي الذين يأخذون عُشر البضاعة ضريبة).

ومثلهم اليوم هؤلاء المكّاسون الذين يأخذون ما لا يلزمهم شرعاً من الوظائف المالية بالقهر والجبر... وهو من أعظم الذنوب وأكبرها وأفحشها؛ فإنه غصب وظلم وعسف على الناس، وإذاعة للمنكر وعمل به ودوام عليه وإقرار له.

الرابعة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩).

هذه الآية من ثلاث كلمات؛ تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات.

فقوله ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾؛ دخل فيه صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.

ودخل في قوله ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾؛ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغيض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.

وفي قوله ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)؛ الحث على التعلّق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزه عن منازعة السفهاء ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة.





سُورَةُ الْأَنْفَالِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

وصف الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره؛ وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه. ونظير هذه الآية ﴿وَشَرَّ الْمُحِبِّينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

❁ الثانية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَفَّوْا أَن يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ .

فإذا اتقى العبد ربه - وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه - وترك الشبهات مخافة الوقوع في المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفظ من شوائب الشرك الخفي والظاهر بمراعاة غير الله في الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال؛ جعل له بين الحق والباطل فرقاناً، ورزقه فيما يريد من الخير إمكاناً.

❁ الثالثة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِعَةً فَاتَّبَعُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ .

اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم؛ فإن القلب لا يسكن عند اللقاء

ويضطرب اللسان؛ فأمر بالذكر؛ حتى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللسان على الذكر. ويقول ما قاله أصحاب طالوت ﴿رَبَّنَا آفِرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٥١)؛ وهذه الحالة لا تكون إلا عن قوة المعرفة، واتقاد البصيرة؛ وهي الشجاعة المحمودة في الناس.

الرابعة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦).

أمر بالصبر؛ وهو محمود في كل المواطن، وخاصة موطن الحرب.

الخامسة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِقَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧).

يعني أبا جهل وأصحابه الخارجين يوم بدر لنصرة العير؛ خرجوا بالمغنيات والمعازف، فلما وردوا الجحفة؛ بعث خفاف الكناني - وكان صديقاً لأبي جهل - بهدايا إليه مع ابن له، وقال: إن شئت أمددتك بالرجال، وإن شئت أمددتك بنفسي مع من خفت من قومي. فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد، فوالله ما لنا بالله من طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة. والله لا نرجع عن قتال محمد؛ حتى نرد بدرًا؛ فنشرب فيها الخمر، وتعزف علينا القيان؛ فإن بدرًا موسم من مواسم العرب، وسوق من أسواقهم؛ حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد. فوردوا بدرًا؛ ولكن جرى ما جرى من هلاكهم. ﴿بَطْرًا﴾؛ أي خرجوا بطرين مرأين صادين.

السادسة: ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانِذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

والمعنى: وإما تخافن خيانة من قوم بينك وبينهم عهد فانبذ إليهم العهد؛ أي قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم، وأنا مقاتلكم؛ ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء، ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك؛ فيكون ذلك خيانة وغدرًا. ثم بين هذا بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ ﴿٥٨﴾﴾ .

السابعة: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ .

أمر الله سبحانه المؤمنين بإعداد القوة للأعداء بعد أن أكد تقدمة التقوى؛ فإن الله سبحانه لو شاء لهزمهم بالكلام والتفل في وجوههم وبحفنة من تراب؛ كما فعل رسول الله - ﷺ - [في غزوة حنين حينما رمى الكفار بحفنة من التراب في وجوههم؛ قائلاً: شامت الوجوه؛ فلم تترك هذه الحفنة كافرًا إلا أصابته في وجهه]. ولكنه أراد أن يتبلي بعض الناس ببعض بعلمه السابق وقضائه النافذ.

إن قيل: إن قوله وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة كان يكفي، فلم خص الرمي والخيل بالذكر؟ .

قيل له: إن الخيل لما كانت أصل الحروب التي عُقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوة وأشد العدة وحصون الفرسان، وبها [الصولة والجمولة] في الميدان؛ خصها بالذكر تشریفًا، وأقسم بغبارها تكريمًا؛ فقال ﴿وَالْعَدِيدَاتِ ضَبْحًا ﴿٦١﴾﴾ .

ولما كانت السهام من [أنفع] ما يتعاطى في الحروب والنكاية في

العدو وأقربها تناولاً للأرواح؛ خصها رسول الله - ﷺ - بالذكر لها والتنبية عليها.

ونظير هذا في التنزيل ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾. ومثله كثير. [فذكر الله الملائكة عموماً، ثم خص بالذكر جبريل وميكايل].

الثامنة: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إن كان للمسلمين مصلحة في الصلح؛ لنفع يجتلبونه، أو ضرر يدفعونه، فلا بأس أن يتدبى المسلمون به إذا احتاجوا إليه.

وقد صالح رسول الله - ﷺ - أهل خيبر على شروط نقضوها فنقض صلحهم، وقد صالح الضمري وأكدرومة الجندل وأهل نجران، وقد هادن قريشاً لعشرة أعوام؛ حتى نقضوا عهده. وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل.

التاسعة: ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وألف بين قلوبهم؛ أي جمع بين قلوب الأوس والخزرج. وكان تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي - ﷺ - ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يُلطمُ اللطمة فيقاتل عنها حتى يستقيدها، وكانوا أشد خلق الله حمية؛ فألف الله - بالإيمان - بينهم؛ حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين.

وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار. والمعنى متقارب.



سُورَةُ التَّوْبَةِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: [سبب سقوط البسملة من هذه السورة].

اختلف العلماء في سبب سقوط البسملة من أول هذه السورة على أقوال خمسة؛ [منها]:

قيل: كان من شأن العرب في زمانها في الجاهلية إذا كان بينهم وبين قوم عهد، فإذا أرادوا نقضه؛ كتبوا إليهم كتاباً ولم يكتبوا فيه بسملة؛ فلما نزلت سورة (براءة) بنقض العهد الذي كان بين النبي - ﷺ - والمشركين بعث بها النبي - ﷺ - علي بن أبي طالب [رضي الله عنه] فقرأها عليهم في الموسم، ولم يبسمل في ذلك على ما جرت به عادتهم في نقض العهد من ترك البسملة.

الثانية: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

يعني إلى الذين عاهدتهم رسول الله - ﷺ -؛ لأنه كان المتولي للعقود، وأصحابه بذلك كلهم راضون فكأنهم عاقدوا وعاهدوا؛ فنسب العقد إليهم.

وكذلك ما عقده أئمة الكفر على قومهم؛ منسوب إليهم، محسوب عليهم، يُؤخذون به، إذ لا يمكن غير ذلك؛ فإن تحصيل الرضا من الجميع متعذر، فإذا عقد الإمام لما يراه من المصلحة أمراً لزم جميع الرعايا.

الثالثة: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (١٧).

استدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب قتل كل من طعن في الدين؛ إذ هو كافر.

والطعن أن ينسب إليه ما لا يليق به، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين؛ لما ثبت من الدليل القطعي على صحة أصوله واستقامة فروعه.

الرابعة: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

قال ابن العربي: قالت الإمامية: حزن أبي بكر في الغار دليل على جهله ونقصه وضعف قلبه.

وأجاب علماؤنا عن ذلك: بأن إضافة الحزن إليه ليس بنقص؛ كما لم ينقص إبراهيم حين قال عنه ﴿نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾. ولم ينقص موسى قوله ﴿فَأَوَّجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (١٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ. وفي لوط ﴿وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ﴾.

فهؤلاء العظماء - صلوات الله عليهم - قد وُجد عندهم [الخوف والحزن] ولم يكن ذلك طعناً عليهم ووصفا لهم بالنقص؛ وكذلك في أبي بكر.

إن حزن الصديق إنما كان خوفاً على النبي - ﷺ - أن يصل إليه ضرر، ولم يكن النبي - ﷺ - في ذلك الوقت معصوماً [من قتل الكفار له] وإنما نزل عليه ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بالمدينة.

الخامسة: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنِّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٢).

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: نزلت في الجعد بن قيس؛ إذ قال للنبي ﷺ [أذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به .

قال الإمام القرطبي عن معنى الآية: إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يُقبل منكم؛ ثم بين جل وعز لم لا يقبل منهم؛ فقال ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. فكان في هذا أدل دليل على أن أفعال الكافر إذا كانت برًّا؛ كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يُثاب عليها، ولا ينتفع بها في الآخرة.

دليله ما رواه مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت قلت يا رسول الله، [عبد الله] بن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

السادسة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١١٦).

هذا نص صريح في أن الله تعالى هو الآخذ لها والمثيب، عليها وأن الحق له جل وعز، والنبي - ﷺ - واسطة، فإن توفي فعامله هو الواسطة بعده، والله وَجَلَّ حَيُّ لَا يَمُوتُ.

السابعة: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَاتَّخَذَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩).

في هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى

والقصد لوجهه الكريم فهو الذي يبقى ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه .

الثامنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقِنُّونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ .

أصل الشراء بين الخلق أن يعوضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم في النفع؛ فاشترى الله سبحانه من العباد؛ إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته، وإهلاكها في مرضاته؛ وأعطاهم سبحانه الجنة عوضاً عنها إذا فعلوا ذلك؛ وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوِّض ولا يقاس به؛ فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء، فمن العبد تسليم النفس والمال، ومن الله الثواب والنوال؛ فسُمِّي هذا شراءً .

التاسعة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

ففي هذا أدل دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت وانتهك حجابها؛ كانت سبباً إلى الضلالة والردى، وسلماً إلى ترك الرشاد والهدى .
نسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنه .





سُورَةُ يُوسُفَ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝﴾.

الحكيم: المُحَكَّم بالحلال والحرام والحدود والأحكام.

وقيل: الحكيم بمعنى الحاكم؛ أي إنه حاكم بالحلال والحرام، وحاكم بين الناس بالحق.

وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه؛ أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه.

وقال مقاتل: الحكيم بمعنى المحكم من الباطل؛ لا كذب فيه ولا اختلاف.

❁ الثانية: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى ما خلق الله ذلك إلا بالحق؛ أي ما أراد الله وَعَجَّلَ بخلق ذلك إلا الحكمة والصواب، وإظهاراً لصنعته وحكمته، ودلالة على قدرته وعلمه، ولتُجزى كل نفس بما كسبت؛ فهذا هو الحق.

الثالثة: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦).

قوله تعالى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ ظرف؛ أي مقداراً من الزمان - وهو أربعون سنة - من قبله؛ أي من قبل القرآن؛ تعرفوني بالصدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بالمعجزات. أفلا تعقلون أن هذا لا يكون إلا من عند الله لا من قبلي.

الرابعة: ﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَدْيِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٧).

أي دعوه وحده وتركوا ما كانوا يعبدون. وفي هذا دليل على أن الخلق جُبلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأن المضطر يُجاب دعاؤه، وإن كان كافراً؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب.

الخامسة: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٨).

لا خوف عليهم؛ أي في الآخرة، ولا هم يحزنون لفقد الدنيا. وقيل: لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ أي من تولاه الله تعالى وتولى حفظه وحياطته ورضي عنه فلا يخاف يوم القيامة ولا يحزن. وقيل: لا خوف عليهم في ذريتهم؛ لأن الله يتولاهم، ولا هم يحزنون على دنياهم لتعويض الله إياهم في أولاهم وأخراهم؛ لأنه وليهم ومولاهم.

السادسة: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِمْ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيْكَ وَلَا تُنظِرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

وهذا إخبار من الله تعالى عن نبيه نوح عليه السلام أنه كان بنصر الله واثقاً، ومن كيدهم غير خائف؛ علماً منه بأنهم وآلهتهم لا ينفعون ولا يضرُّون. وهو [تسلياً] لنبيه - عليه السلام - وتقوية لقلبه.





سُورَةُ هُودٍ

وقد جمعت منها هذه الدرر:

● الأولى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

يمتعكم متاعًا حسنًا؛ هذه ثمرة الاستغفار والتوبة؛ أي يمتعكم بالمنافع، ثم سعة الرزق ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم.

● الثانية: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك؛ أي فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه.

وقال ﴿ضَائِقٌ﴾ ولم يقل ضيق ليشاكل ﴿تَارِكٌ﴾ الذي قبله؛ ولأن الضائق عارض، والضيق ألزم منه.

● الثالثة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّئَارِنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظَرُكُمْ كَذِبِينَ﴾.

قال النحاس: الأراذل هم الفقراء، والذين لا حسب لهم،
والخسيسو الصناعات.

وفي الحديث أنهم كانوا حاكة وحجامين. وكان هذا جهلاً منهم؛
لأنهم عابوا نبي الله - ﷺ - بما لا عيب فيه؛ لأن الأنبياء - صلوات الله
وسلامه عليهم - إنما عليهم أن يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير
الصور والهيئات، وهم يُرسلون إلى الناس جميعاً، فإذا أسلم منهم الدنيء
لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم.
قال علماؤنا: إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف،
وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير؛ والفقير خلي عن تلك
الموانع؛ فهو سريع إلى الإجابة والانقياد. وهذا غالب أحوال أهل الدنيا.

الرابعة: ﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾.

فكيدوني جميعاً؛ أي أنتم وأوثانكم في عداوتي وضري.
ثم لا تنظرون؛ أي لا تؤخرون.

وهذا القول [من هود] - مع كثرة الأعداء - يدل على كمال الثقة
بنصر الله تعالى. وهو من أعلام النبوة؛ أن يكون الرسول وحده يقول
لقومه ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾.

وكذلك قال النبي - ﷺ - لقريش. وقال نوح - ﷺ - ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ
وَشُرَكَاءَكُمْ...﴾.

الخامسة: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ. وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾.

كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف؛ كانوا إذا جاءهم البائع

بالطعام أخذوا بكييل زائد، واستوفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا؛ وإن جاءهم مشتر للطعام باعوه بكييل ناقص، وشحوا له بغاية ما يقدرون؛ فأمرُوا بالإيمان إقلاَعًا عن الشرك، وبالوفاء نهياً عن التطفيف.

السادسة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾.

ذكر الله سبحانه في كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها؛ فقال ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾. وقال ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾. وقال ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (١٧) وله الحمد في السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨). وقال ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾. وقال ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾. وقال ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (٢٨) وقال ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ وقال ﴿وَلَا يَجْهَرُ بِصَوْتِكَ وَلَا يَخَافُ يَهَاكَ﴾. وهذا كله مجمل أجمله [الله] في كتابه، وأحال على نبيه في بيانه؛ فقال جل ذكره:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ فبين - ﷺ -

مواقيت الصلاة، وعدد الركعات والسجرات، وصفة جميع الصلوات فرضها وسننها، وما لا تصح الصلاة إلا به من الفرائض وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال في صحيح البخاري:

«صلوا كما رأيتموني أصلي». ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة،

على ما هو معلوم، ولم يمت النبي - ﷺ - حتى بين جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.



سورة يوسف

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾﴾.

[سميت هذه السورة أحسن القصص]؛ فقليل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة؛ وبيانه قوله في آخرها ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجازة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم - بعد الالتقاء بهم - عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم؛ حتى قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجن والإنس والأنعام والطيور، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقهاء والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا.

وقال بعض أهل المعاني: إنما كانت أحسن القصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وامرأة العزيز؛ قيل: والملك أيضاً أسلم بيوسف وحسن إسلامه، ومستعبر الرؤيا الساقى، والشاهد فيما يقال؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير.

الثانية: ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُ رُءَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شقيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها.

وفي هذه الآية [أيضًا] دليل على أن مباحًا أن يحذر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلًا في معنى الغيبة؛ لأن يعقوب - عليه السلام - قد حذر يوسف أن يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدًا، وفيها أيضًا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته (أي شره) حسدًا وكيدًا.

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان؛ فإن كل ذي نعمة محسود».

وفيها أيضًا دليل واضح على معرفة يعقوب - عليه السلام - بتأويل الرؤيا؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرًا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه.

ويدل أيضًا على أن يعقوب - عليه السلام - كان أحسن من بنيه حسد يوسف وبغضه؛ فنهاه عن [أن يقص] الرؤيا عليهم؛ خوف أن تغل بذلك صدورهم؛ فيعملوا الحيلة في هلاكه.

الثالثة: ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنََّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

إن أبانا لفي ضلال مبين لم يريدوا ضلال الدين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارًا؛ بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير، في إثارة اثنين على

عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه. وقيل: لفي خطأ بين بإيثاره يوسف وأخاه علينا.

الرابعة: ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾.

قال علماؤنا: هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله، لاحتمال أن يكون تصنعاً؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك، ومنهم من لا يقدر. وقد قيل: إن الدمع المصنوع لا يخفى؛ كما قال حكيم:

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى

الخامسة: ﴿وَجَاءَ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾.

قال علماؤنا رحمة الله عليهم:

لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها، وهي سلامة القميص من التنيب؛ إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق؛ ولما تأمل يعقوب - عليه السلام - القميص فلم يجد فيه خرقاً ولا أثراً؛ استدل بذلك على كذبهم، وقال لهم: متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص؟!.

(التنيب؛ أي سلامة قميص يوسف من أنياب الذئب).

السادسة: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قالت الحكماء في هذه الآية: والله غالب على أمره حيث أمره

يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته؛ فغلب أمر الله حتى قص، ثم أراد إخوته قتله؛ فغلب أمر الله حتى صار ملكًا وسجدوا بين يديه، ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم؛ فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم . . .

ثم تدبروا أن يكونوا من بعده قومًا صالحين؛ أي تائبين؛ فغلب أمر الله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقرؤا بين يدي يوسف في آخر الأمر، وقالوا لأبيهم ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧)، ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص؛ فغلب أمر الله فلم ينخدع، وقال ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾، ثم احتالوا في أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق في قلبه، ثم دبّرت امرأة العزيز أنها إن ابتدرته [وابتدأته] بالكلام غلبته، فغلب أمر الله حتى قال العزيز ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ (١١٩)، ثم دبّر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى؛ فغلب أمر الله فنسي الساقى، ولبث يوسف في السجن بضع سنين.

السابعة: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا وَمِمَّا نَأْكُلُونَ﴾ (٤٧).

هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية؛ التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال؛ فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوت شيئًا منها فهو مفسدة، ودفعه مصلحة؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحتهم الدنيوية؛ ليحصل لهم التمكّن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية، ومراعاة ذلك فضل من الله - وَجَّكَ -

ورحمة رحم بها عباده، من غير وجوب عليه، ولا استحقاق؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين؛ وبسطه في أصول الفقه.

الثامنة: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

دلت الآية على جواز أن يخطب [ويطلب] الإنسان عملاً يكون له أهلاً؛ فإن قيل: فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله - ﷺ -: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة؛ فإنك إن أعطيتها عن مسألة؛ وكُلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة؛ أعت عليها».

وعن أبي بردة قال: قال أبو موسى: أقبلت إلى النبي - ﷺ - ومعني رجلان من الأشعريين - أحدهما عن يميني والآخر عن يساري - فكلاهما سأل العمل، والنبي - ﷺ - يستاك، فقال:

«ما تقول يا أبا موسى - أو يا عبد الله بن قيس؟». قال قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل... فقال: «لا نستعمل على عملنا من أراده». خرجه مسلم أيضاً وغيره؛ فالجواب:

أولاً: أن يوسف - ﷺ - إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم؛ فرأى أن ذلك فرض متعين عليه فإنه لم يكن هناك غيره، وهكذا الحكم اليوم؛ لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك، ويخبر بصفاته التي يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك، كما قال يوسف - ﷺ - .

فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب؛ لقوله - ﷺ - لعبد الرحمن: «لا تسأل الإمارة».

وأيضاً فإن في سؤالها والحرص عليها - مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها - دليلاً على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك؛ وهذا معنى قوله - ﷺ - : «وَكُلَّ إِلَيْهَا».

ومن أباهما لعلمه بآفاتها، ولخوفه من التقصير في حقوقها فر منها، ثم إن ابتلي بها فيرجى له التخلص منها؛ وهو معنى قوله «أعين عليها».

الثاني: أنه [يوسف] لم يقل: إني حسيب كريم، وإن كان كما قال النبي - ﷺ -: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم».، ولا قال: إني جميل مليح؛ إنما قال ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِ﴾ (٥٥)؛ فسألها بالحفظ والعلم، لا بالنسب والجمال.

الثالث: إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾.

الرابع: أنه رأى ذلك فرضاً متعيّناً عليه؛ لأنه لم يكن هنالك غيره، وهو الأظهر، والله أعلم.

التاسعة: ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (٥٧).

أي ما نعطيه في الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه في الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم في كل مؤمن متقٍ.

العاشرة: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِنِّي أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةً وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

[في الآية عدة مسائل]:

الأولى: لما عزموا على الخروج خشي عليهم العين؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد - وكانت مصر لها أربعة أبواب - وإنما خاف عليهم العين؛ لكونهم أحد عشر رجلاً لرجل واحد؛ وكانوا أهل جمال وكمال وبسطة.

الثانية: إذا كان هذا معنى الآية؛ فيكون فيها دليل على التحرز من العين، والعين حق؛ وقد قال رسول الله - ﷺ -: «إن العين لتدخل الرجل القبر، والجمل القدر».

وفي تعوده - ﷺ -: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة». ما يدل على ذلك.

وروى مالك، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخزار فنزع جبة كانت عليه، وعامر بن ربيعة ينظر، قال: وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد قال: فقال له عامر بن ربيعة:

ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! فوعك [أي مرض] سهل مكانه واشتد وعكه، فأتى رسول الله - ﷺ - فأخبر أن سهلاً وعك، وأنه غير رائح معك يا رسول الله؛ فأتاه رسول الله - ﷺ - فأخبره سهل بالذي كان من شأن عامر؛ فقال رسول الله ﷺ: «علام يقتل أحدكم أخاه! ألا برکت إن العين حق، توضع له». ، فتوضأ عامر، فراح سهل مع رسول الله - ﷺ - ليس به بأس.

وقد أنكرت [العين] طوائف من المبتدعة، وهم محجوجون باللسنة وإجماع علماء هذه الأمة، وبما يشاهد من ذلك في الوجود؛ فكم من رجل أدخلته العين القبر، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال ﴿وَمَا هُمْ بِضَكَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

الثالثة: واجب على كل مسلم أعجبه شيء أن يبرك؛ فإنه إذا دعا بالبركة صُرف المحذور لا محالة؛ ألا ترى قوله - ﷺ - لعامر: «ألا برّكت»؛ فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا برّك العائن، وأنها إنما تعدو إذا لم يبرك.

والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه.

الرابعة: العائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك فإنه يؤمر بالاعتسال، ويُجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لا سيما هذا؛ فإنه قد يخاف على المعين الهلاك، ولا ينبغي لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولا سيما إذا كان بسببه وكان الجاني عليه.

قال علماؤنا: إنما يُسترقى من العين إذا لم يُعرَف العائن؛ وأما إذا عُرف الذي أصابه بعينه؛ فإنه يؤمر بالوضوء.

الحادية عشرة: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ فَضَلَّهَا﴾.

دلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

﴿الثانية عشرة﴾: ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ ﴿٨١﴾.

تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلاً وشرعاً، فلا تُسمع إلا ممن علم، ولا تُقبل إلا منهم؛ وهذا هو الأصل في الشهادات؛ ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس - إذا فُهمت إشارته - جائزة؛ وكذلك الشهادة على الخط - إذا تيقن أنه خطه أو خط فلان - صحيحة؛ فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به، وإن لم يُشهِد المشهود عليه؛ قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨١﴾. وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير الشهداء؛ خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها». رواه مسلم.

﴿الثالثة عشرة﴾: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾.

في هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يُظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يُتوهم؛ أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه، ويصرح بالحق الذي هو عليه؛ حتى لا يبقى لأحد متكلم؛ وقد فعل هذا نبينا محمد - ﷺ - بقوله للرجلين اللذين مرا وهو قد خرج مع صفية يقلبها من المسجد: «على رسلكما؛ إنما هي صفية بنت حبي». فقالا: سبحان الله وكبرَ عليهما فقال النبي - ﷺ -:

«إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً» متفق عليه.

(يقلبها من المسجد؛ أي يردّها الرسول - ﷺ - إلى بيتها؛ لأنها زارته ليلاً إلى المسجد وهو معتكف).

[الرسول - ﷺ] - قال لهذين الصحابييين إن المرأة التي بجانبه هي زوجته صفية وليست امرأة أخرى؛ حتى لا يوسوس الشيطان لهما أن الرسول ﷺ برفقة امرأة أخرى؛ وهذا مما ينبغي على الواحد منا أن يُبعد نفسه عن موطن الشبهة].

الرابعة عشرة: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣).

الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضا والتسليم لمجره عليه - وهو العليم الحكيم -، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيين - صلوات الله عليهم أجمعين.

الخامسة عشرة: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَلَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٤).

وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضر؛ أي الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره أن يبدي حاله إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخُّط؛ والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل؛ وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى؛ وذلك قول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِّي وَحُرْفِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)؛ أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائده على عباده.



سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِنْ أَعْنَبٍ وَزَعٍّ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ وَنُفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾﴾.

[أي؛ أراضٍ تجاور بعضها بعضًا]؛ ترابها واحد، وماؤها واحد، وفيها زروع وجنات، ثم تتفاوت في الثمار والتّمر؛ فيكون البعض حلواً، والبعض حامضاً؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثمر فيه من الصغر والكبر واللون والمطعم، وإن انبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد؛ وفي هذا أدل دليل على وحدانيته وعظم صمديته، والإرشاد لمن ضل عن معرفته؛ فإنه نبه سبحانه بقوله ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدل دليل على بطلان القول بالطبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعل له الطبيعة لما وقع الاختلاف [في اللون والطعم والحجم...].

﴿الثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾﴾.

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غير الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة؛ فليس

معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير؛ كما قال - ﷺ - وقد سُئِلَ أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث». والله أعلم

الثالثة: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ شُوْبَةٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿٧﴾﴾.

ضرب [الله] مثلاً للحق والباطل؛ فشبّه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحل. (يضمحل؛ أي يتلاشى ويتفرق).

كذلك ما يوقد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبث في الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليزوب فيزايله تراب الأرض [ويبتعد عنه].

إن المثليين ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، فالباطل وإن علا في بعض الأحوال؛ فإنه يضمحل كاضمحلال الزبد والخبث.

الرابعة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾.

هذه الآية تدل على الترغيب في النكاح والحض عليه، وتنهى عن التبتل - وهو ترك النكاح - وهذه سنة المرسلين كما نصت عليه هذه الآية، والسنة واردة بمعناها؛ قال - ﷺ - : «تزوجوا فإنني مكاثر بكم الأمم».

وقال «إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الثاني».

ومعنى ذلك أن النكاح يعف عن الزنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله - ﷺ - عليهما الجنة فقال: «من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة».





سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ .

أي يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحتة ومن قدامه وخلفه؛ كقوله ﴿هُم مِّن فَوْقِهِمْ مُّطَّلَعُونَ﴾، ومن تحته ﴿مِنْ أَسْفَلِهِمْ مُّطَّلَعُونَ﴾ .

وقيل: إنه لا يبقى عضو من أعضائه إلا وُكِلَ به نوع من العذاب؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها في فرد لحظة؛ إما حية تنهشه، أو عقرب [تلدغه]، أو نار تسفعه، أو قيد برجليه، أو غل (طوق من حديد) في عنقه، أو سلسلة يقرن (يُقَيِّد) بها، أو تابوت يكون فيه، أو زقوم أو حميم، أو غير ذلك من العذاب.

❁ الثانية: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ .

ضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار في أنه يمحقتها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى.

الثالثة: ﴿وَأَتَانَكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٤).

نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدّها، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها، كالسمع والبصر وتقويم الصُّور إلى غير ذلك من العافية والرزق؛ نعم لا تحصى وهذه النعم من الله، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر؟! وهلاً استعنتم بها على الطاعة؟!!

الرابعة: ﴿زَيْنًا إِنِّي أَخَسْتُ مِّنْ ذُرِّيَّتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمَحْرَمِ﴾.

مسألة: لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضیعة اتكّالاً على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل...؛ فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله؛ لقول [زوجته هاجر] في الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم.

وقد روي أن سارة لما غارت من هاجر - بعد أن ولدت إسماعيل - خرج بها إبراهيم - ﷺ - إلى مكة، فروي أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنه [وهاجر] هنالك وركب منصرفاً من يومه، فكان ذلك كله بوحي من الله تعالى، فلما ولّى دعا بضمن هذه الآية.

الخامسة: ﴿وَلَا تَحْسَبِ أَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٤).

وهذا تسلية للنبي - ﷺ - بعد أن [تعجّب واستغرب] من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم؛ أي اصبر كما صبر إبراهيم، وأعلم

المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم؛ بل سنة الله إمهال العصاة مُدَّة.

السادسة: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدْتَهُمْ هَوَاءً﴾ (٤٦).

المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع.
مقنعي رؤوسهم؛ أي رافعي رؤوسهم ينظرون في ذل. وإقناع الرأس رفعه.
لا يرتد إليهم طرفهم؛ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر.
وأفئدتهم هواء؛ أي لا تُغني شيئاً من شدة الخوف.

السابعة: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٥١).

والمعنى في الآية؛ أن الله سبحانه سريع الحساب؛ لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحُساب؛ ولهذا قال - وقوله الحق - ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ (٤٧).
فالله - جل وعز - عالم بما للعباد وعليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل؛ إذ قد علم ما للمحاسب وعليه؛ لأن الفائدة في الحساب علم حقيقته.

ومعنى الحساب: تعريف الله عباده بمقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه؛ بدليل قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوِّهُ﴾.



سُورَةُ الْحَجَرِ

ومنها جمعت هاتين الخرتين:

﴿الْأُولَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾﴾.

كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، فلما تقوّض المجلس (أي تفرق وانصرف من كان بالمجلس) دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال نعم. قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعدته. فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف. فلما كان بعد سنة [جاء إلى مجلس المأمون وقد أصبح مسلماً، فتكلم على الفقه فأحسن الكلام؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المأمون وقال: ألسنت صاحبنا بالأمس؟ (أي قبل سنة) قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت تراني حسن الخط؛ فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فردت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشترت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فردت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشترت مني، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان [تركوها] فلم يشتروها؛ فعلمت أن هذا كتاب محفوظ؛ فكان هذا سبب إسلامي.

الثانية: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

الآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب...» الحديث.

فإن قيل: وهل يُسأل الكافر ويُحاسب؟

الذي يظهر سؤاله للآية وقوله ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنِّي مَسْئُلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وقوله ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾. فإن قيل فقد قال - تعالى - ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وقال ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾ وقال ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ وقال ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾؛ قلنا: القيامة مواطن، فمواطن يكون فيه سؤال وكلام، ومواطن لا يكون ذلك فيه.

قال عكرمة: القيامة مواطن يُسأل في بعضها ولا يُسأل في بعضها.





سُورَةُ النَّازِعَاتِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿أَنْتَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾.

قيل: أتى؛ بمعنى يأتي؛ فهو كقولك: إن أكرمتني أكرمتك.
وقد تقدم [في سورة الفاتحة] أن إخبار الله - تعالى - في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة؛ كقوله ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ... ﴿٤٤﴾﴾.

❁ الثانية: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾.

أي على الله بيان قصد السبيل.
والسبيل: الإسلام؛ أي على الله بيانه بالرسول والحجج والبراهين.
وقصد السبيل: استعانة الطريق؛ يقال: طريق قاصد؛ أي يؤدي إلى المطلوب.
ومنها جائر؛ أي ومن السبيل جائر؛ أي [مائل] عن الحق فلا يهتدى به.

❁ الثالثة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥١﴾ بَنَوْرَىٰ مِنَ الْقَوَىٰ مِنْ سُوءٍ مَا بُشِّرَ بِهِ أُمَسِّكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

ثبت في صحيح مسلم عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: جاءني امرأة

ومعها ابتنان لها، فسألتنني فلم تجد عندي غير تمره واحده، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل عليّ النبي - ﷺ - فحدثته حديثها، فقال النبي - ﷺ -: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار».

ففي هذا الحديث ما يدل على أن البنات بليّة؛ ثم أخبر أن في الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقي من النار.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ -: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو». وضمّ أصابعه. رواه مسلم.

الرابعة: ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٩).

رُوي أن عوف بن مالك الأشجعي مرض، ف قيل له: ألا نعالجك؟ فقال: ائتوني بالماء، فإن الله - تعالى - يقول ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾، ثم قال: ائتوني بعسل، فإن الله - تعالى - يقول ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، وائتوني بزيت، فإن الله - تعالى - يقول ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾؛ فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعاً ثم شربه فبرئ.

قال ابن عطية: ذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يُراد بها أهل البيت وبنو هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر هذا بعضهم في مجلس الخليفة العباسي - أبي جعفر المنصور -؛ فقال له رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بني هاشم؛ فأضحك الحاضرين وبُهِت الآخر، وظهرت سخافة قوله.

السابعة: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ .

إن قال قائل: قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره، فكيف يكون شفاء للناس؟ قيل له: الماء حياة كل شيء، وقد رأينا من يقتله الماء إذا أخذه على ما يضادّه من علة في البدن.

السابعة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .

أي يعتبرون؛ ومن العبرة في النحل بإنصاف النظر وإلطاف الفكر في عجب أمرها؛ فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحثها باحتيالها في تفاوت أحوالها هو الله - ﷻ - .
ثم إنها تأكل الحامض والمر والحلو والمالح والحشائش الضارة؛ فيجعله الله - تعالى - عسلاً حلواً وشفاء، وفي هذا دليل على قدرته.

الثامنة: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

هذا مثل ضربه الله لعبدة الأصنام، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله - تعالى - في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عبُد؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه.

التاسعة: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ .

قال العلماء: في قوله - تعالى - ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ﴾

دليل على اتخاذ العباد عدة الجهاد ليستعينوا بها على قتال الأعداء، وقد لبسها النبي - ﷺ - تقاة الجراحة - وإن كان يطلب الشهادة - وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن باللسان وللضرب بالسيوف، ولكنه يلبس لأمة (أي درع) حرب؛ لتكون له قوة على قتال عدوه، ويقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ويفعل الله بعد ما يشاء.

العاشرة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِمْ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾.

شبهت هذه الآية الذي يحلف ويُعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة؛ تغزل غزلها وتفتله محكمًا؛ ثم تحله [وتبطله].

الحادية عشرة: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾.

قال المفسرون: نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذ حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى.

الثانية عشرة: ﴿إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِمْ﴾.

أي أن الله - تعالى - ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك؛ من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها.

الثالثة عشرة: ﴿وَلَا تَنَحَّدُوا أَيَّمَنَكُم دَخَلًا بَيْنَكُم فَزَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذَوُّقُوا أَلْسُوَءَ يَمَا صَدَدْتُم عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُم عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾﴾ .

قوله تعالى ﴿وَلَا تَنَحَّدُوا أَيَّمَنَكُم دَخَلًا بَيْنَكُم﴾ كرر ذلك تأكيداً [للآية التي سبقتها].

فتزل قدم بعد ثبوتها مبالغة في النهي عنه لعظم موقعه في الدين وتردده في معاشرات الناس؛ أي لا تعقدوا الأيمان [والعهود والمواثيق] بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها، أي عن الأيمان بعد المعرفة بالله.

وهذه استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر.

الرابعة عشرة: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾ .

نهى عن الرشا وأخذ الأموال على نقض العهد؛ أي لا تنقضوا عهودكم لعرَضٍ قليل من الدنيا. وإنما كان قليلاً وإن كثر؛ لأنه مما يزول؛ فهو [في الحقيقة] قليل.

الخامسة عشرة: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ .

فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفذ وتحول، وما عند الله - من مواهب فضله ونعيم جنته - ثابت لا يزول؛ لمن وفى بالعهد وثبت على العقد.

ولقد أحسن من قال:

المال ينفد حله وحرامه يوماً وتبقى في غدِ آثامُهُ
ليس التقى بمتقٍ لإلهه حتى يطيب شرابُهُ وطعامُهُ

❁ السادسة عشرة: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)﴾ .

فإذا أخذت في قراءته فاستعد بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدك عن تدبره والعمل بما فيه؛ وليس يريد استعد بعد القراءة بل هو كقولك: إذا أكلت فقل بسم الله؛ أي إذا أردت أن تأكل.
[وقد تقدم مزيد من توضيح ذلك في سورة الفاتحة عند الحديث على الاستعاذة].

❁ السابعة عشرة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ .

هذه الآية نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنة قريش، وأمره أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي أن يُوعظ المسلمون إلى يوم القيامة؛ فهي محكمة في جهة العصاة من الموحدين، ومنسوخة بالقتال في حق الكافرين.
وقد قيل: إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجي إيمانه بها دون قتال فهي فيه محكمة. والله أعلم.





سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (١٦).

أخبر الله - تعالى - في الآية التي قبلها ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعدٌ منه، ولا خلف في وعده. فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ما قاله - تعالى -؛ أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير. يُعلمك أن من هلك هلك بإرادته، فهو الذي يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله - تعالى -.

❁ الثانية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكرهما بشكره؛ فقال ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. وقال ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ﴾ (١٤). وفي صحيح البخاري عن عبد الله قال: سألت النبي - ﷺ - أي العمل أحب إلى الله - ﷻ -؟ قال: «الصلاة على وقتها» قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين» قال ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

فأخبر - ﷺ - أن بر الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة؛ التي هي أعظم دعائم الإسلام.

ومن تمام برهما صلة أهل ودهما؛ ففي [صحيح مسلم] عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه بعد أن يولي».

وكان - ﷺ - يهدي [لصديقات] خديجة؛ برًا بها ووفاء لها - وهي زوجته - فما ظنك بالوالدين.

الثالثة: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفٍ وَلَا نَنْهَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره؛ لتغيير الحال عليهما بالضعف والكبر؛ فالزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنهما في هذه الحالة قد صارا [عبئًا وتعبًا] عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يلي منه؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر.

وأيضًا؛ فطول المكث للمرء يوجب الاستئثار للمرء عادة، ويحصل الملل ويكثر الضجر؛ فيظهر غضبه على أبويه، وتنتفخ لهما أوداجه، وأقل المكروه ما يظهره بنفسه المتردد من الضجر.

وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة؛ وهو السالم عن كل عيب؛ فقال ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْفٍ وَلَا نَنْهَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

الرابعة: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾.

أمر - تعالى - عباده بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن

ترحمهما كما رحماك، وترفق بهما كما رفقا بك؛ إذ وليك صغيراً جاهلاً محتاجاً؛ فأثراك على أنفسهما، وأسهر ليلهما، وجاعاً وأشبعاك، وتعرياً وكسواك؛ فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحد الذي كنت فيه من الصغر، فتلي منهما ما وليا منك، ويكون لهما حينئذ فضل التقدم.

الخامسة: ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ (١٤).

خص التربية بالذكر؛ ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية؛ فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما.

السادسة: ﴿وَإِنَّمَا تَعْرَضَنَّهُمْ عَنْهُمْ أَبِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيسُورًا﴾ (٧٨).

[لما ذكر الله في الآية التي سبقت هذه الآية]؛ وهي قوله ﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ...﴾ (٢١)؛ خص نبيه - ﷺ - بقوله ﴿وَإِنَّمَا تَعْرَضَنَّهُمْ عَنْهُمْ أَبِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا...﴾ (٧٨)؛ وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أي لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتحرمهم.

وإنما يجوز أن تعرض عنهم عند عجز يعرض وعائق يعوق، وأنت عند ذلك ترجو من الله - ﷻ - فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل؛ فإن قعد بك الحال فقل لهم قولاً ميسوراً.

وقيل: المعنى وإما تعرضن؛ أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد فقل لهم قولاً ميسوراً؛ أي أحسن القول وابسط العذر، وادع لهم بسعة الرزق، وقل إذا وجدت فعلت وأكرمت؛ فإن ذلك يعمل في مسرة نفسه عمل المواساة.

وكان - عليه الصلاة والسلام - إذا سُئِلَ وليس عنده ما يعطي سكت انتظاراً لرزق يأتي من الله - ﷻ - كراهة الرد؛ فنزلت هذه الآية؛ فكان - ﷺ - إذا سُئِلَ وليس عنده ما يعطي قال: «يرزقنا الله وإياكم من فضله». فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر.

السابعة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩).

هذا مجاز عبر به عن البخيل الذي لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله؛ فضرب له مثل الغُلِّ (أي القيد) الذي يمنع من التصرف باليد. ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾؛ ضرب بسط اليد مثلاً لذهاب المال، فإن قبض الكف يحبس ما فيها، وبسطها يذهب ما فيها. وهذا كله خطاب للنبي - ﷺ - والمراد أمته، وكثيراً ما جاء في القرآن؛ فإن النبي - ﷺ - لما كان سيدهم وواسطتهم إلى ربهم عبر به عنهم على عادة العرب في ذلك.

الثامنة: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾.

أمر الله - تعالى - في هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصة، بحسن الأدب وإلانة القول، وخفض الجناح وإطراح نزغات الشيطان؛ وقد قال - ﷺ - «وكونوا عباد الله إخواناً».

التاسعة: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ (٨٤).

حُكي أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه -: قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى

وأحسن من قوله - تعالى - ﴿حَمَّ ۙ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۙ﴾ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۙ﴾ قدم غفران الذنوب على قبول التوبة، وفي هذا إشارة للمؤمنين. وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه -: قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله - تعالى - ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۙ﴾ (٤٩). وقال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله - تعالى - ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۙ﴾ (٥٣).

قلت - أي القرطبي -: وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله - تعالى - ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ۙ﴾ (٨٢).

العاشرة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۙ﴾ (٨٩).

أي وجهنا [ونوعنا القرآن] بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات، والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي وأقاصيص الأولين، والجنة والنار والقيامة.

الحادية عشرة: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۙ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ جَلَلَهَا تَفْجِيرًا ۙ﴾ (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلٰٓئِكَةُ قَيْلًا ۙ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحٰنَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۙ﴾ (٩٣).

أي ما أنا إلا بشراً رسولاً أتبع ما يوحى إلي من ربي، ويفعل الله

ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحدًا من البشر أتى بهذه الآيات.

وقال بعض الملحدين: ليس هذا جوابًا مقنعًا، وغلطوا؛ لأنه أجابهم فقال: إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتموني، وليس لي أن أتخير على ربي، ولم تكن الرسل قبلي يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه، وسبيلي سبيلهم، وكانوا يقتضرون على ما أتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل ما يقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول: لا أومن حتى أوتى بآية خلاف ما طلب غيري؛ وهذا يؤول [ويرجع ويصير] إلى أن يكون التدبير إلى الناس؛ وإنما التدبير إلى الله - تعالى - .





سُورَةُ الْكَهْفِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: [بين يدي السورة].

في صحيح مسلم عن أبي الدرداء - رضي عنه - أن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال». وفي مسلم - أيضًا - من حديث النواس بن سمعان «فمن أدركه - يعني الدجال - فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف».

الثانية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنما جعلنا ذلك امتحانًا واختبارًا لأهلها؛ فمنهم من يتدبر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظمنَّ عليك كفرهم فإنما نجازيهم.

الثالثة: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

هذه الآية صريحة في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقربات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقيه الإنسان من المحنة.

وقد خرج النبي - ﷺ - فأراً بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس في الغار.

وهجر [الصحابة] أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقرباتهم وإخوانهم؛ رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسكنى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم؛ هي سنة الأنبياء - صلوات الله عليهم - والأولياء.

الرابعة: ﴿وَحَسَبَهُمْ آفِكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَلِبَهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلَبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُغْبًا ۗ﴾

إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله - تعالى - بذلك في كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي - ﷺ - وآله خير آل.

روى الصحيح عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: بينا أنا ورسول الله - ﷺ - خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله - ﷺ -: «ما أعددت لها؟» قال: ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة؛ ولكنني أحب الله ورسوله. قال «فأنت مع من أحببت».

في رواية قال أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي - ﷺ -: «فأنت مع من أحببت».

قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم».

وهذا الذي تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذي نفس، وكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين؛ كلب أحب قومًا فذكره الله معهم؛ فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي - ﷺ - ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾.

الخامسة: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْنَا بَنِينَ ذُرِّيَّتَهُمْ أَلَعَلَّ رَبُّنَا يَرْزُقُنَا وَالرَّزْقُ لِلَّهِ إِنَّا فِيهِ لَمَلِكٌ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٧١﴾﴾.

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة؛ فاتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها، والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمنته السنة من النهي عنه ممنوع لا يجوز.

روى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأيتها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله - ﷺ -، فقال رسول الله - ﷺ -: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرار الخلق عند الله - تعالى - يوم القيامة».

قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد.

وروى [مسلم وغيره] عن أبي مرثد الغنوي قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها».

أي لا تتخذوها قبلة فتصلوا عليها أو إليها كما فعل اليهود والنصارى؛ فيؤدي إلى عبادة من فيها؛ كما كان السبب في عبادة الأصنام.

وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالوا: لما نزل برسول الله - ﷺ - [مرض الموت] طفق يطرح خميصة (أي ثوب) له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا».

وروى مسلم عن جابر قال: نهى رسول الله - ﷺ - أن يُجصَّصَ القبر، وأن يُقعد عليه، وأن يُبنى عليه.

وروى [مسلم] عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله - ﷺ -: ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً مُشرفاً إلا سويته.

قال علماؤنا: ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة.

وذهب الجمهور إلى أن هذا الارتفاع المأمور بإزالته هو ما زاد على التسنيم، ويبقى للقبر ما يُعرف به ويُحترم، وذلك صفة قبر نبينا محمد - ﷺ - وقبر صاحبيه - [أبي بكر وعمر] - رضي الله عنهم.

وأما تعليه البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيماً وتعظيماً فذلك يُهدم ويُزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا في أول منازل الآخرة، وتشبهاً بمن كان يُعظم القبور ويعبدها؛ وباعتبار هذه المعاني وظاهر النهي أن ينبغي أن يقال: هو حرام.

والتسنيم في القبر: ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سنام البعير.

السادسة: ﴿وَأَصِيرُ فَنَسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا نَطَعُ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَأَلْمَهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ .

ومعنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا: أيها الناس من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر؛ ليس إلي من ذلك شيء، فالله يؤتي الحق من يشاء وإن كان ضعيفاً، ويحرمه من يشاء وإن كان قوياً غنياً، ولست بطارد المؤمنين لهواكم؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا .

وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد؛ أي إن كفرتم فقد أعد لكم النار، وإن آمنتم فلکم الجنة .

السابعة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً ﴿٤٦﴾﴾ .

وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً؛ فصارا زينة الحياة الدنيا، لكن معه قرينة الصفة للمال والبنين؛ لأن المعنى: المال والبنون زينة هذه الحياة المحترقة فلا تتبعوها نفوسكم .

وهو رد على عيينة بن حصن وأمثاله لما افتخروا بالغنى والشرف؛ فأخبر - تعالى - أن ما كان من زينة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح؛ إنما يبقى ما كان من زاد القبر وعُدَد الآخرة .

الثامنة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ ﴿١٠٤﴾.

[رحلة موسى للقاء الخضر؛ ليتعلم منه] في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخدام والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان في دأب السلف الصالح؛ وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعي الناجح؛ فرسخت لهم في العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام.

التاسعة: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿١٠٥﴾.

إن قال قائل: كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله - تعالى -، وقال في خرق السفينة: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا...﴾. فأضاف العيب إلى نفسه.

[والجواب] لما كان ذلك خيراً كله أضافه إلى الله - تعالى - وأضاف عيب السفينة إلى نفسه؛ رعاية للأدب؛ لأنها لفظة عيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه؛ كما تأدب إبراهيم - عليه السلام - في قوله ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ﴿١٨٠﴾ فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله - تعالى - [في قوله الذي أطعمني فهو يسقين] وأسند إلى نفسه المرض، إذ هو معنى نقص ومصيبة، فلا يضاف إليه - عليه السلام - من الألفاظ إلا ما يُستحسن منها دون ما يُستقبح، [ثم أضاف الشفاء إلى الله في قوله: فهو يشفين؛ فأضاف الشفاء لله، وأضاف المرض لنفسه؛ تأدباً مع الله ألا يضيف إلى الله ما فيه عيب ونقص].



سُورَةُ قُرَيْشٍ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى﴾: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾.

وهن؛ أي ضعف.

وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن؛ تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشد ما فيه وأصلبه؛ فإذا وهن كان ما وراءه أوهن منه.

قال العلماء: يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نعم الله - تعالى - عليه وما يليق بالخضوع؛ لأن قوله تعالى ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهار للخضوع. وقوله ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿٤﴾ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته؛ أي لم أكن بدعائي إياك شقيًّا؛ أي لم تكن تخيِّب دعائي إذا دعوتك؛ أي إنك عودتني الإجابة فيما مضى.

﴿الثانية﴾: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَىٰ مِن وَّرَآئِي وَكَانَتْ أُمَّرَاتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾.

قالت طائفة: إنما كان مواليه مهملين للدين، فخاف بموته أن يضيع الدين، فطلب وليًّا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القول الزجاج، وعليه فلم يسئل من يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تُورث. وهذا هو الصحيح...

في تأويل الآية، وأنه - عليه الصلاة والسلام - أراد وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال.

في كتاب أبي داود قال عليه الصلاة والسلام: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا؛ إنما ورثوا العلم».

قال العلماء: دعاء زكريا - عليه السلام - في الولد إنما كان لإظهار دينه، وإحياء نبوته، ومضاعفة لأجره، لا للدنيا، وكان ربه قد عوّده الإجابة؛ ولذلك قال ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾؛ أي بدعائي إياك. وهذه وسيلة حسنة؛ أن يتشفع إليه بنعمه، يستدر فضله بفضله.

إن قال قائل: هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد، والله تعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك؛ فقال ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. وقال ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾. فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة. ثم إن زكريا - عليه السلام - تحرز فقال ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وقال ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة.

وقد دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنس خادمه فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته». فدعا له بالبركة؛ تحرُّزًا مما يؤدي إليه الإكثار من الهلكة. وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه في هداية ولده، ونجاته في أولاه وأخراه؛ اقتداء بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والفضلاء.

الثالثة: ﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا﴾.

استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتومًا؛ فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة

لترى آية، وكانت الآية [في نزول الرطب] تكون [بدون أن تهز مريم النخلة؛ لكن الله يعلم مريم ويعلمنا السعي وبذل السبب].

الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يقدر في التوكل، خلافاً لما تقوله جهال المتزهدة.

وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾. فلما ولدت أمرت بهز الجذع. قال علماءنا: لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن النصب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها، وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده.

قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم؛ ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت.

الرابعة: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾.

صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين، وضده - وهو - الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل فوصفه بصدق الوعد. ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخلف الذم. وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفى بندره؛ وكفى بهذا مدحاً وثناءً، وبما خالفه ذمّاً.

الخامسة: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾؛ أي في الكفر. ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾؛

أي فليدعه في طغيان جهله وكفره؛ فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر؛ أي من كان في الضلالة مده الرحمن مدًّا حتى يطول اغتراره، فيكون ذلك أشد لعقابه. نظيره ﴿إِنَّمَا نُعَمِّلُهُمْ لِيَزِدَّادُوا إِثْمًا﴾، وقوله ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ومثله كثير؛ أي فليعيش ما شاء، وليوسع لنفسه في العمر؛ فمصيره إلى الموت والعقاب؛ وهذا غاية في التهديد والوعيد.





سُورَةُ طه

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وإن تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧).

قال ابن عباس: السر حديث نفسك، وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن، أنت تعلم ما تسر به نفسك اليوم، ولا تعلم ما تسر به غداً والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسره غداً، والمعنى؛ الله يعلم السر وأخفى من السر.

❁ الثانية: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ (٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ (٨).

في [هاتين الآيتين] دليل على جواب السؤال بأكثر مما سُئِلَ؛ لأنه لما قال ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ (٧) ذكر أربعة معانٍ؛ وهي إضافة العصا إليه - وكان حقه أن يقول عصا -؛ والتوكؤ، والهش، والمآرب المطلقة.

وفي الحديث، سُئِلَ النبي - ﷺ - عن ماء البحر؛ فقال «هو الطهور ماؤه الحِلُّ ميتته». ومثله في الحديث كثير.

❁ الثالثة: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ (٤٥) قَالَ لَا نَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦).

قال العلماء: لما لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه.

وهذه الآية ترد على من قال: إنه لا يخاف؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم.

ولقد أحسن البصري - رَحِمَهُ اللهُ - حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله - أنه نزل مع أصحابه في طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له: قد خاطرت بنفسك. فقال: لأن تختلف الأسته (أي أسنان الأسد) في جوفي أحب إلي من أن يعلم الله أنني أخاف شيئاً سواه - [قال الحسن البصري] قد خاف من كان خيراً من عامر؛ موسى - رَحِمَهُ اللهُ - حين قال له ﴿...إِنَّكَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرَجْ إِلَى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَّجَ مِنْهَا خَافِيًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾. وقال ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَافِيًا يَتَرَقَّبُ﴾.

وقال - حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم - ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٢٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٢٨﴾﴾.

قلت - أي القرطبي -: ومنه حفر النبي - رَحِمَهُ اللهُ - الخندق حول المدينة تحصيناً للمسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد؛ ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم؛

مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة؛ تخوفاً على أنفسهم من مشركي مكة؛ وهرباً بدينهم أن يفتنواهم عنه بتعذيبهم.





سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

ومنها اخترت هذه الدرّة:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠)

هذه الآية أصل في اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه؛ فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة.

وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود - ﷺ - أنه كان يصنع دروع [الحرب]، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حرّاثاً، ونوح نجّاراً، ولقمان خيّطاً، وطالوت دبّاغاً.

فالصنعة يكف بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس.





سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

ومنها جمعت هاتين الصّريتين:

❁ الأولى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُؤْتُهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ مَبْنُونٍ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴿٥٦﴾﴾
 بل لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ .

أي أيحسبون يا محمد أن الذي نعطيهم في الدنيا من المال والأولاد هو ثواب لهم، إنما هو استدراج وإملاء.

❁ الثانية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦١﴾﴾
 أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ .

روى الترمذي، عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: سألت رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عن هذه الآية والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا يا بنت الصديق؛ ولكنهم الذين يصومون ويصلُّون ويتصدقون وهم يخافون ألا يُقبل منهم؛ أولئك الذين يسارعون في الخيرات.





سُورَةُ النَّازِعَاتِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِفْكٍ غُصْبَةٍ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١١)﴾.

المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذين [أقيم عليهم حد القذف هم] حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، ولم يُسمع بحدِّ لعبد الله بن أبيي.

قال علماؤنا: وإنما لم يُحد عبد الله بن أبيي؛ لأن الله تعالى قد أعد له في الآخرة عذاباً عظيماً؛ فلو حُدَّ في الدنيا لكان ذلك نقصاً من عذابه في الآخرة وتخفيفاً عنه، مع أن الله تعالى قد شهد ببراءة عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وبكذب كل من رماها؛ فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف؛ وإنما حُدَّ هؤلاء المسلمون؛ ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف؛ حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة.

﴿الثانية: ﴿لَوْلَا إِذْ سَعَيْتُمْوُه ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢)﴾.

هذا عتاب من الله ﷻ للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا.

وقيل: المعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم؛ فإن كان ذلك يبعد فيهم؛ فذلك في عائشة. ورؤي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته؛ وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمع ما قيل؟! فقال: نعم، وذلك الكذب، أكنت أنتِ يا أم أيوب تفعلين ذلك! قالت: لا والله، قال: فعائشة والله أفضل منك. قالت أم أيوب: نعم. فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه المؤمنين إذ لم يفعلوه جميعهم.

قوله تعالى ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾. قال النحاس: معنى بأنفسهم بإخوانهم. فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلاً يقذف أحداً ويذكره بقبیح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه، وتوعد من ترك ذلك ومن نقله. قلت - القرطبي - ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم؛ لا يزيلها عنه خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً.

الثالثة: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾.

عتاب لجميع المؤمنين؛ أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه - عليه الصلاة والسلام -، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان؛ وحقيقة البهتان أن يُقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يُقال في الإنسان ما فيه.

الرابعة: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١١٥).

في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيراً لا يحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطح بن أثاثة بعد قوله، بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكبائر؛ ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله؛ قال الله تعالى ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

[وفي الآية دليل على أن] من حلف على شيء لا يفعله فرأى فعله أولى منه؛ أتاه وكفر عن يمينه، أو كفر عن يمينه وأتاه.

الخامسة: ﴿بَنَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلْنَ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١١٧).

لما خصص الله سبحانه ابن آدم الذين كرمهم وفضلهم بالمنازل وسترهم فيها عن الأبصار، وملّكهم الاستمتاع بها على الانفراد، وحجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج أو أن [يدخلوها] من غير إذن أربابها، أدّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم؛ لئلا يطلع أحد منهم على عورة.

روى الصحيحان وغيرهما، عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: استأذنت على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: من هذا؟ فقلت: أنا، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: أنا أنا! كأنه كره ذلك.

قال علماؤنا: إنما كره النبي - صلى الله عليه وسلم - ذلك؛ لأن قوله أنا لا يحصل بها تعريف، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه.

السادسة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٣٠).

البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته؛ ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله؛ وقد قال: ﷺ - : «إياكم والجلوس على الطرقات». فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها. فقال: «إذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر».

السابعة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (٣٩).

هذا مثل ضربه الله تعالى للكفار، يعولون على ثواب أعمالهم، فإذا قدموا على الله تعالى؛ وجدوا ثواب أعمالهم محبطة بالكفر؛ أي لم يجدوا شيئاً كما لم يجد صاحب السراب إلا أرضاً لا ماء فيها. (السراب هو ما يراه المشاهد والمسافر - خاصة في الصحراء وخطوط الأسفلت - كأنه ماء وليس بماء).





سُورَةُ الْفُرْقَانِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿١١٧﴾﴾.

أي إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد - سبحانه - أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر؛ فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني. ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه؛ فالغني مُمتحن بالفقير؛ عليه أن يواسيه ولا يسخر منه. والفقير مُمتحن بالغني؛ عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق.

وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نعاف؟. والأعمى يقول: لِمَ لم أُجعل كالبصير؟. وهكذا صاحب كل آفة. والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس من الكفار في عصره. وكذلك العلماء وحُكَّام العدل. ألا ترى إلى قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣١﴾. فالفتنة أن يحسد المبتلى المُعافى، ويحقر المُعافى المبتلى. والصبر: أن يحبس كلاهما نفسه، هذا عن البطر، وذاك عن الضَّجَرِ.

﴿الثانية: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿١١٨﴾﴾.

لأن الملك الذي يزول وينقطع ليس بملك؛ فبطُلت يومئذ أملاك

المالكين وانقطعت دعاويهم، وزال كل ملك ومُلكه. وبقي المُلْك الحق لله وحده.

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ (٢٦)؛ أي لِمَا ينالهم من الأهوال ويلحقهم من الخزي والهوان، وهو على المؤمنين أخف؛ لأنه إذا كان على الكافرين عسيرًا، فهو على المؤمنين يسير.

الثالثة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِّبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ (٤٧).

قوله تعالى ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾؛ أي راحة لأبدانكم بانقطاعكم عن الأشغال.

قيل: السبت القطع؛ فالنوم انقطاع عن الاشتغال؛ ومنه سَبَتَ اليهود؛ لانقطاعهم عن الأعمال فيه. وقيل: السبت الإقامة في المكان؛ فكأن السُّبات سكون وثبوت عليه؛ فالنوم سُبات على معنى أنه سكون عن الاضطراب والحركة.

الرابعة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ (٥٧).

قوله تعالى ﴿خِلْفَةً﴾ قال أبو عبيدة: الخِلفة كل شيء بعد شيء. وكل واحد من الليل والنهار يخلف صاحبه.

وقيل: يتعاقبان في الضياء والظلام والزيادة والنقصان.

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾؛ أي يتذكر؛ فيُعلم أن الله لم يجعله كذلك عبثًا؛ فيعتبر في مصنوعات الله، ويشكر الله تعالى على نعمه عليه في العقل والفكر والفهم.

وقال عمر بن الخطاب وابن عباس والحسن: معناه من فاته شيء من الخير بالليل أدركه بالنهار، ومن فاته بالنهار أدركه بالليل.

روى مسلم عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ «من نام عن حزه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِبَ له كأنما قرأه من الليل».

ومن الغُبن العظيم [والخسارة] أن يعيش الرجل ستين سنة ينام ليها؛ فيذهب النصف من عمره لغواً، وينام سدس النهار راحة؛ فيذهب ثلثاه ويبقى له من العمر عشرون سنة، ومن الجهالة والسفاهة أن يُتَلَفَ الرجل ثلثي عمره في لذة فانية، ولا يُتَلَفَ عمره بسهر في لذة باقية عند الغني الوفي الذي ليس بعديم ولا ظلوم.

الخامسة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِيْنَ يَمْشُوْنَ عَلَى الْاَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُوْنَ قَالُوْا سَلٰمًا﴾.

لما ذكر جهالات المشركين وطعنهم في القرآن والنبوة ذكر عبادة المؤمنين أيضاً وذكر صفاتهم، وأضافهم إلى عبوديته؛ تشريفاً لهم، كما قال ﴿سُبْحٰنَ الَّذِيْ اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ﴾.

فمن أطاع الله وعبده وشغل سمعه وبصره ولسانه وقلبه بما أمره فهو الذي يستحق اسم العبودية، ومن كان بعكس هذا شمله قوله تعالى ﴿اُولٰٓئِكَ كَالْاَنْعٰمِ بَلْ هُمْ اَضَلُّ﴾؛ يعني في عدم الاعتبار.

السادسة: ﴿وَالَّذِيْنَ إِذَا اَنْفَقُوْا لَمْ يُسْرِفُوْا وَلَمْ يَقْتُرُوْا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوٰمًا﴾.

التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب

الشرع فيها ألا يُفِرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيلاً ونحو هذا، وألا يضيّق أيضاً ويقتّر حتى يُجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام؛ أي العدل [والتوسط]، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وصبره على الكسب، أو ضد هذه الخصال، وخير الأمور أوساطها؛ ولهذا ترك رسول الله - ﷺ - أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أن يتصدق بجميع ماله؛ لأن ذلك وسط بنسبة [تحمله] وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك.

السابعة: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۗ﴾ (٧٤).

وذلك أن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر، أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدين والدنيا، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده، فتسكن عينه عن الملاحظة، ولا تمتد عينه إلى ما ترى؛ فذلك حين قرّة العين وسكون النفس.

قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۗ﴾ (٧٤)؛ أي قدوة يُقتدى بنا في الخير، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي مُتَّقِيًا قدوة؛ وهذا هو قصد الداعي.

الثامنة: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا كَسَبُوا وَيُلَاقُونَ فِيهَا كَلْبَةً وَسَلَمًا ۗ﴾ (٧٥).

[اتصف عباد الرحمن بإحدى عشرة صفة؛ وهي]: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشرك والزنى والقتل، والتوبة، وتجنب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتغال إلى الله.



سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ﴾ ❶.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ﴾ ❶؛ أرسل إليه جبريل بالوحي، واجعله رسولاً معي ليؤازرنِي ويعاونني. ولم يذكر هنا ليعينني؛ لأن المعنى كان معلوماً، وقد صرح به في سورة طه ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي﴾ ❷. وفي القصص ﴿فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ ❸. وكان موسى أذن له في هذا السؤال، ولم يكن ذلك استعفاء من الرسالة بل طلب من يعينه؛ ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر، ويخاف من نفسه تقصيراً، أن يأخذ من يستعين به عليه، ولا يلحقه في ذلك لوم.

❁ الثانية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ ❹.

كان من سنته تعالى في عباده إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه، وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه؛ أمر موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً وسماهم عباده؛ لأنهم آمنوا بموسى.

❁ الثالثة: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ❺.

قال: المرسلين؛ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل؛ لأن كل رسول يأمر بتصديق جميع الرسل.

[فلا ينفع نفسًا إيمانها إن آمنت بنبي وكفرت بآخر؛ كما هو حال اليهود والنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ؛ لأن الإيمان بالأنبياء مسألة لا تقبل التجزئة ولا التفريق]؛ كما قال الله ﴿ءَأَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾.

الرابعة: ﴿قَالُوا أَنْوْمُنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

والمعنى: [قال نوح عليه السلام] (وما علمي بما يعملون)؛ أي لم أكلف العلم بأعمالهم، إنما كُلفت أن أدعوهم إلى الإيمان، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع؛ وكانهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعًا في العزة والمال. فقال: إني لم أقف على باطن أمرهم، وإنما إلى ظاهرهم.

الخامسة: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

قال ابن عباس: قالوا [يا صالح] إن كنت صادقًا فادع الله يخرج لنا من هذا الجبل ناقة حمراء عشراء (أي حامل في شهرها العاشر) فتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب، وتغدو علينا بمثله لبنًا. فدعا الله؛ وفعل الله ذلك فقال ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾؛ أي حظ من الماء؛ أي لكم شرب يوم ولها شرب يوم؛ فكانت إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله أول النهار وتسقيهم اللبن آخر النهار، وإذا كان يوم شربهم كان لأنفسهم ومواشيهم وأرضهم، ليس لهم في يوم ورودها أن يشربوا من شربها شيئًا، ولا لها أن تشرب في يومهم من ماءهم شيئًا.

السادسة: ﴿فَأَنْفُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا﴾ (١٢٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ .

إنما كان جواب هؤلاء الرسل واحداً على صيغة واحدة [وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في سورة الشعراء]؛ لأنهم متفقون على الأمر بالتقوى، والطاعة والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على تبليغ الرسالة.

السابعة: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (١٢٤).

روى مسلم من حديث عمرو بن الشريد عن أبيه قال: رَدِفْتُ رسول الله - ﷺ - يوماً، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟» قلت: نعم. قال «هيه» فأنشدته بيتاً. فقال «هيه» ثم أنشدته بيتاً. فقال «هيه» حتى أنشدته مائة بيت. (رَدِفْتُ؛ أي كنت راكباً معه على دابة. هيه؛ أي زدني).

وفي هذا دليل على حفظ الأشعار والاعتناء بها إذا تضمنت الحِجْمَ والمعاني المستحسنة شرعاً وطبعاً، وإنما استكثر النبي - ﷺ - من شعر أمية لأنه كان حكيماً.

ولا ينكر الحسن من الشعر أحد من أهل العلم ولا من أولي النهى (أي العقول)، وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر، أو تمثّل به أو سمعه؛ فرضيه ما كان حكمة أو مباحاً، ولم يكن فيه فُحْش ولا خنا ولا لمسلم أذى؛ فإذا كان كذلك فهو والمنثور من القول سواء لا يحل سماعه ولا قوله.

قيل ﴿الْغَاوُونَ﴾ (١٢٤) الزائلون عن الحق، ودلّ بهذا أن الشعراء أيضاً غاؤون؛ لأنهم لو لم يكونوا غاوين ما كان أتباعهم كذلك.

الشعر المذموم الذي لا يحل سماعه وصاحبه ملوم، فهو المتكلم بالباطل؛ حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البريء ويفسقوا التقي، وأن يفرطوا في القول بما لم يفعله المرء؛ رغبة في تسلية النفس وتحسين القول.

في [صحيح مسلم] عن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله - ﷺ - إذ عرض شاعر ينشد، فقال رسول الله - ﷺ -: «خذوا الشيطان - أو أمسكوا الشيطان - لأن يمتلي جوف رجل قيحاً خير له من أن يمتلي شعراً».

قال علماؤنا: وإنما فعل النبي - ﷺ - هذا مع هذا الشاعر لما علم من حاله، فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عُرف من حاله أنه قد اتخذ الشعر طريقاً للتكسب؛ فيفرط في المدح إذا أُعطي، وفي الهجو والذم إذا مُنع؛ فيؤذي الناس في أموالهم وأعراضهم.

ولا خلاف في أن من كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالشعر حرام، وكل ما يقوله من ذلك حرام عليه، ولا يحل الإصغاء إليه؛ بل يجب الإنكار عليه.

الثامنة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾.

استثنى [الله] شعر المؤمنين: حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير ومن كان على طريقهم من القول الحق؛ فقال ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ في كلامهم. ﴿وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾. وإنما يكون الانتصار بالحق، وبما حده الله ﷻ؛ فإن تجاوز ذلك فقد انتصر بالباطل.

التاسعة: ﴿وَسِعَلَدُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٧).

في هذا تهديد لمن انتصر بظلم. قال شريح: سيعلم الظالمون كيف [ينجون] من بين يدي الله ﷻ؛ فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة.

والمعنى ﴿أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٧)؛ أيّ مصير يصيرون وأيّ مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار؛ وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العقاب؛ وهو شر مرجع.





سُورَةُ النَّمْلِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٥).

في الآية دليل على شرف العلم [وعلو] محله وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم، وأن من أُوتيه فقد أُوتي فضلاً على كثير من عباد الله المؤمنين. ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾.

❁ الثانية: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٨).

لا اختلاف عند العلماء أن الحيوانات كلها لها أفهام وعقول. وقد قال الشافعي: الحمام أعقل الطير. قال ابن عطية: والنمل حيوان فطن قوي، يدّخر [الحبوب]، ويشق الحب بقطعتين؛ لئلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع؛ لأنها تنبت إذا قُسمت شقتين، ويأكل في عامه نصف ما جمع، ويستبقي سائرُه عدة.

❁ الثالثة: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ (٢١).

في هذه الآية دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته؛ والمحافظة عليهم. فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يخفَ على سليمان حاله. ويرحم الله عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فإنه كان على سيرته؛ قال: لو أن سخلة (أي شاة) على شاطئ الفرات أخذها الذئب لِيُسأل عنها عمر. فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان.

وقد دل القرآن والسنة وبيّننا ما يجب على الإمام من تفقد أحوال رعيته، ومباشرة ذلك بنفسه، والسفر إلى ذلك وإن طال [هذا السفر].

الرابعة: ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ (٣٢).

في هذه الآية دليل على صحة المشاورة. وقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. وقد مدح الله تعالى الفضلاء بقوله ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. والمشاورة من الأمر القديم وخاصة في الحرب؛ فهذه بلقيس امرأة جاهلية كانت تعبد الشمس ﴿قَالَتْ يَتَأْتِيَ الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ (٣٢)؛ لتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم، وحزمهم فيما يقيم أمرهم، وإمضائهم على الطاعة لها، بعلمها بأنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم كان ذلك عونًا لعدوهم عليهم، وإن لم تختبر ما عندهم، وتعلم قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم، وربما كان في استبدادها برأيها وهن [وضعف] في طاعتها؛ وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريده من قوة شوكتهم، وشدة مدافعتهم؛ ألا ترى إلى قولهم في جوابهم ﴿نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِّ شَدِيدٍ﴾.

الخامسة: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

ضمن الله تعالى إجابة المضطر إذا دعاه، وأخبر بذلك عن نفسه؛ والسبب في ذلك أن الضرورة إليه باللجوء ينشأ عن الإخلاص وقطع القلب عما سواه؛ وللإخلاص عنده سبحانه موقع [ومكان]، [سواء] ووجد من مؤمن أو كافر، طائع أو فاجر؛ كما قال تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينِ يَمِيمٍ يَرِيحُ طَيْبَةً وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾. وقوله ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٢٥﴾﴾؛ فأجابهم عند ضرورتهم ووقوع إخلاصهم، مع علمه أنهم يعودون إلى شركهم وكفرهم. وقال تعالى ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ فيجيب المضطر لموضع اضطراره وإخلاصه.

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن؛ دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده». وفسر إجابة دعوة المظلوم بالنصرة على ظالمه بما شاء سبحانه؛ من قهر له، أو اقتصاص منه، أو تسليط ظالم آخر عليه يقهره؛ كما قال ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾.

وفي هذا تحذير من الظلم جُملة؛ لما فيه من سخط الله ومعصيته ومخالفة أمره؛ حيث قال على لسان نبيه في صحيح مسلم وغيره: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا...» الحديث.

فالمظلوم مُضطَر، ويقرب منه المسافر؛ لأنه منقطع عن الأهل والوطن منفرد عن الصديق والحميم، لا يسكن قلبه إلى مُسعِد، ولا مُعين لغربته؛ فتصدق ضرورته إلى المولى؛ فيخلص إليه في [الالتجاء]، وهو

المجيب للمضطر إذا دعاه، وكذلك دعوة الوالد على ولده؛ لا تصدر منه مع ما يعلم من [حنانه] عليه وشفقته؛ إلا عند تكامل عجزه عنه وصدق ضرورته، [ويأسه] من برّ ولده، مع وجود أذيته؛ فيسرع الحق إلى إجابته.





سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ .

قال الفراء: هو مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره؛ كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حرًا ولا بردًا؛ لأنه لما قصد بالتشبيه لبيتها الذي لا يقيها من شيء؛ فشُبِّهت الآلهة التي لا تنفع ولا تضر به .

الثانية: ﴿بِعِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ .

تقدم [نفس الآية] في آل عمران، وإنما ذكره هاهنا؛ تحقيقاً لأمر الدنيا ومخاوفها؛ كأن بعض المؤمنين نظر في عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه من مكة أنه يموت أو يجوع أو نحو هذا، فحقر الله شأن الدنيا؛ أي أنتم لا محالة ميتون ومحشورون إلينا؛ فالبدار إلى طاعة الله والهجرة إليه .

الثالثة: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

أي شيء يُلهى به ويُلعب؛ أي ليس ما أعطاه الله الأغنياء من الدنيا إلا وهو يضمحل ويزول؛ كاللعب الذي لا حقيقة له ولا ثبات.

[قال الشاعر]:

تروح لنا الدنيا بغير الذي غدت وتحديث من بعد الأمور أمور
وتجري الليالي باجتماع وفرقة وتطلع فيها أنجم وتغور
فمن ظن أن الدهر باقٍ سروره فذاك محال لا يدوم سرور
عفا الله عمن صير الهم واحداً وأيقن أن الدائرات تدور

وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على
الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات، وأما ما كان
منها لله؛ فهو من الآخرة، وهو الذي يبقى.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾؛ أي دار الحياة الباقية التي لا
تزول ولا موت فيها.





سُورَةُ الرَّؤُوفِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿فِي يَضَعُ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾.

أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هي منه وبإرادته وقدرته؛ فقال ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ﴾؛ أي إنفاذ الأحكام. ﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾؛ أي من قبل هذه الغلبة ومن بعدها.

❁ الثانية: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾.

ينصر من يشاء يعني من أوليائه؛ لأن نصره مختص بغلبة أوليائه لأعدائه، فأما غلبة أعدائه لأوليائه فليس بنصره؛ وإنما هو ابتلاء.

❁ الثالثة: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

قال بعض العلماء: هذه الآية أصل في الشركة بين المخلوقين؛ لافتقار بعضهم إلى بعض ونفيها عن الله سبحانه، وذلك أنه لما قال جل وعز ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾. فيجب أن يقولوا: ليس عبيدنا شركاءنا فيما رزقتنا، فيقال لهم: فكيف يتصور أن

تنزهوا نفوسكم عن مشاركة عبيدكم وتجعلوا عبيدي شركائي في خلقي؛ فهذا حكم فاسد وقلة نظر وعمى قلب، فإذا بطلت الشركة بين العبيد وسادتهم فيما يملكه السادة والخلق كلهم عبيد لله تعالى؛ فيبطل أن يكون شيء من العالم شريكاً لله تعالى في شيء من أفعاله؛ فلم يبق إلا أنه واحد يستحيل أن يكون له شريك، إذ الشركة تقتضي المعاونة، ونحن مفتقرون إلى معاونة بعضنا بعضاً بالمال والعمل [والله سبحانه] منزّه عن ذلك جل وعز.





سُورَةُ الْقَمَانِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ .

الآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال، وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق. وقد قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق للنبي - عليه الصلاة والسلام - وقد قدمت عليها أمها، فقالت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأصلها؟ قال: «نعم». (راغبة؛ أي راغبة في الصلة والعطاء من ابنتها أسماء).

❁ الثانية: ﴿يَبْنَئِ أَعْمَرُ الضَّلَوَةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ .

واصبر على ما أصابك يقتضي حُضًا [وحنًا] على تغيير المنكر وإن نالك ضرر؛ فهو إشعار بأن المغيّر يُؤدّي أحيانًا؛ وهذا القدر على جهة الندب والقوة في ذات الله.

❁ الثالثة: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشِيكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ .

في الآية دليل على تعريف قُبْح رفع الصوت في المخاطبة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية.

وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم، أو بترك الصياح جُملة؛ وكانت العرب تفخر بجهارة الصوت الجهير وغير ذلك، فمن كان منهم أشد صوتاً كان أعز، ومن كان أخفض كان أذل؛ فنهى الله ﷻ عن هذا الخُلُق [من خُلُق] الجاهلية بقوله ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩)؛ أي لو أن شيئاً يُهاب لصوته لكان الحمار؛ فجعلهم في المثل سواء.





سُورَةُ الْحَزَائِنِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

فيه دليل على ترك اتباع الآراء مع وجود النص [من الكتاب والسنة]، والخطاب له ولأمته ﷺ.

الثانية: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾.

القلب بضعة صغيرة، خلقها الله تعالى في الأدمي وجعلها محلاً للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار (أي في كُتُب)، وهو محل الخطرات والوساوس ومكان الكفر والإيمان، وموضع الإصرار والإنابة، ومجرى الانزعاج والطمأنينة.

الثالثة: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

هذه الآية أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام؛ منها: أنه ﷺ كان لا يصلي على ميّت عليه دين، فلما فتح الله عليه الفتوح، قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم؛ فمن تُوفي وعليه دين فعلي قضاؤه». متفق عليه.

الرابعة: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ أَمْهَنَهُمْ﴾ .

شَرَّفَ اللهُ تَعَالَى أَزْوَاجَ نَبِيِّهِ - ﷺ - بِأَنْ جَعَلَهُنَّ أَمْهَاتَ الْمُؤْمِنِينَ؛
أَي فِي وَجُوبِ التَّعْظِيمِ وَالْمَبْرَةِ وَالْإِجْلَالِ وَحُرْمَةِ النِّكَاحِ .

الخامسة: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ .

ذَلِكَ أَطْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ يَرِيدُ مِنَ الْخَوَاطِرِ الَّتِي تَعْرُضُ لِلرِّجَالِ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ، وَلِلنِّسَاءِ فِي أَمْرِ الرِّجَالِ، أَي ذَلِكَ أَنْفَى لِلرِّيبَةِ وَأَبْعَدُ لِلتَّهْمَةِ وَأَقْوَى فِي الْحِمَايَةِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَشُقَّ بِنَفْسِهِ فِي الْخُلُوةِ مَعَ مَنْ لَا تَحِلُّ لَهُ؛ فَإِنَّ مُجَانِبَةَ ذَلِكَ أَحْسَنُ لِحَالِهِ وَأَحْصَنُ لِنَفْسِهِ وَأَتَمُّ لِعِصْمَتِهِ .

السادسة: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خُفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ .

الْبَارِئُ ﷻ عَالِمٌ بِمَا بَدَأَ [وَوَظَّهَرَ] وَمَا خَفِيَ وَمَا كَانَ وَمَا لَمْ يَكُنْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَاضٍ تَقَضَّى، وَلَا مُسْتَقْبَلٌ يَأْتِي؛ وَالْمُرَادُ بِهِ هَاهُنَا التَّوْبِيخُ وَالْوَعِيدُ لِمَنْ تَقَدَّمَ التَّعْرِيفُ بِهِ فِي الْآيَةِ قَبْلُهَا، مِمَّنْ أَشِيرَ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، وَمَنْ أَشِيرَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾؛ فَحَقِيلٌ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا تَخْفُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعْتَقَدَاتِ وَالْخَوَاطِرِ الْمَكْرُوهَةِ وَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا؛ فَصَارَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنَعُطْفَةً عَلَى مَا قَبْلُهَا مَبِينَةً لَهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

السابعة: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَوْلَادِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَخَوَاتِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَقِينَ اللَّهَ﴾
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾.

لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب - لرسول الله ﷺ -: ونحن أيضًا؛ [هل] نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية.

ذكر الله تعالى في هذه الآية من يحل للمرأة البروز له، ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد يُسمى العم أبا، قال الله تعالى ﴿عَبُدُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَهُهٖ وَاللَّهُ عَابَادِكُمْ إِزْرَءُكُمْ وَإِئْتَمِرُوا لَهُ...﴾؛ وإسماعيل كان العم.

قوله تعالى ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ﴾ لما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف وانجزمت الإباحة، عطف بأمرهن بالتقوى؛ وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصرن على هذا واتقين الله فيه أن تعدينه إلى غيره. وخص النساء بالذكر وعيَّنهن في هذا الأمر؛ لقلّة تحفظهن وكثرة استرسالهن. والله أعلم.

الثامنة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٥٦﴾.

هذه الآية شرف الله بها رسوله - ﷺ - حياته وموته، وذكر منزلته منه، وطهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك.

والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره.

التاسعة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٨).

أذية المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة؛ كالبهتان الفاحش المختلق. وهذه الآية نظير الآية التي في النساء ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (١١٢).
وقد قيل: إن من الأذية تعييره بحسب [ونسب] مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يُثقل عليه إذا سمعه؛ لأن أذاه في الجملة حرام.
وقد ميّز الله تعالى بين أذاه وأذى الرسول، وأذى المؤمنين؛ فجعل الأول كفراً والثاني كبيرة؛ فقال في أذى المؤمنين ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٨).





سُورَةُ السَّجَاةِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى﴾: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

قوله تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي ما يدخل فيها من قطر وغيره، كما قال ﴿فَسَلَكُهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾ من الكنوز والدفائن والأموات [وغيرها]. وما يخرج منها من نبات وغيره، وما ينزل من السماء من الأمطار والثلوج والبرد والصواعق والأرزاق والمقادير والبركات، وما يعرج فيها من الملائكة وأعمال العباد.

﴿الثانية﴾: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي حَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾.

أي ينبئكم بأنكم تبعثون إذا مُرِّقْتُمْ (أي يقول الكفار مستحيل بأن الله يبعث أجسادكم بعد أن أصبحت ممزقة ورفاتاً في القبور، لأن الرسول ﷺ كان يقول لهم بأن الله يبعث من في القبور يوم القيامة وكان الكفار ينكرون هذا).

قال الزمخشري: فإن قلت: كان رسول الله ﷺ مشهوراً في قريش، وكان إنبأؤه بالبعث شائعاً عندهم، فما معنى قولهم ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ﴾ فنكروه لهم (أي قالوا هل ندلكم على رجل دون أن يذكروا اسم

النبي - ﷺ - مع أنهم يعرفونه) كما يدل على مجهول في أمر مجهول .
قلتُ: كانوا يقصدون بذلك الهزؤ والسخرية، فأخرجوه مخرج التحكي
ببعض الأحاجي التي يُتَحاكى بها للضحك والتلهي، متجاهلين به
وبأمره .

الثالثة: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
إِنْ نَشَاءُ نَخِيفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ
لَآيَةٌ لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ﴿٩﴾﴾ .

أَعَلِمَ اللهُ تعالى أن الذي قدر على خلق السماوات والأرض وما
فيهن قادر على البعث وعلى تعجيل العقوبة لهم، فاستدل بقدرته عليهم،
وأن السماوات والأرض ملكه، وأنهما محييطان بهم من كل جانب،
فكيف يأمنون الخسف والكسف . كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة .

(إن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط . . .).

أي إن يشأ اللهُ أمرَ الأرض فتنخسف بهم، أو السماء فتسقط عليهم
كسفاً .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنبِئٍ ﴿٩﴾﴾؛ أي دلالة ظاهرة لكل
عبد تائب رجّاع إلى الله بقلبه . وخص المُنبِئ بالذكر؛ لأنه المنتفع
بالفكرة في حجج الله وآياته .

الرابعة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ
الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾﴾ .

في هذه الآية دليل على تعلم أهل الفضل الصنائع، وأن التحرف
(أي تعلم الحرف) لا يُنقص من مناصبهم، بل ذلك زيادة في فضلهم

وفضائلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم والاستغناء عن غيرهم، وكسب الحلال الخلي عن الامتنان. وفي الصحيح عن النبي - ﷺ - قال: «إن خير ما أكل المرء من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

الخامسة: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٢٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾.

أي [قال الكفار] فضلنا [الله] عليكم بالأموال والأولاد، ولو لم يكن ربكم راضيًا بما نحن عليه من الدين والفضل لم [يعطنا] ذلك.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (٢٥)؛ [قال الكفار حسب زعمهم] أن من أحسن إليه فلا يعذبه. فرد الله عليهم قولهم وما احتجوا به من الغنى فقال لنبيه ﷺ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أي أن الله هو الذي يُفاضل بين عباده في الأرزاق امتحانًا لهم، فلا يدل شيء من ذلك على ما في العواقب، فسعة الرزق في الدنيا لا تدل على سعادة الآخرة؛ فلا تظنوا أموالكم وأولادكم تُغني عنكم غداً شيئاً.

السادسة: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (٢٦).

أي قل يا محمد لهؤلاء المغترين بالأموال والأولاد إن الله يوسع على من يشاء ويضيّق على من يشاء، فلا تغتروا بالأموال والأولاد بل أنفقوها في طاعة الله، فإن ما أنفقتم في طاعة الله فهو يخلفه عليكم؛ أي يعطيكم خلفه وبدله، وذلك البذل إما في الدنيا وإما في الآخرة.

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان؛ فيقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنْفَقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ مُمَسِّكًا تلفًا».





سورة قطر

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١).

قال الزمخشري: والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق؛ من طول قامته، واعتدال صورة، وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش، [ورزانة] في العقل، وجزالة في الرأي، وجرأة في القلب، وسماحة في النفس، وذلاقة في اللسان، ولباقة في التكلم؛ وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف.

❁ الثانية: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْأَحْزَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦).

أي فعادوه ولا تطيعوه؛ ويدلكم على عداوته إخراجهم أباكم [آدم] من الجنة، وضمانه إضلالكم في قوله ﴿وَلَا ضَلَّٰلَتُهُمْ وَلَا مَنِيَّتُهُمْ...﴾ (١١٩)، وقوله ﴿...لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١١٦) ثُمَّ لَا تَبْتَهُهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ... (١٧)؛ فأخبرنا جل وعز أن الشيطان لنا عدو مبین؛ واقتصص علينا قصته، وما فعل بأبينا آدم - ﷺ -، وكيف [سارع] لعداوتنا من قبل وجودنا وبعده؛ ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا.

قال ابن السَّمَاك: يا عجا لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه! وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته!

الثالثة: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ
يَاذِنُ اللّٰهُ﴾ .

تكلم الناس في تقديم الظالم على المقتصد والسابق؛ فقيل: التقدير في الذكر لا يقتضي تشريفاً؛ كقوله تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ .

الرابعة: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِن
إِحْدَى الْأُممِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ .

هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله محمداً - ﷺ - حين بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم، فلعنوا من كذب نبيه منهم، وأقسموا بالله لئن جاءهم نذير؛ أي نبي ليكونن أهدي من إحدى الأمم؛ يعني ممن كذب الرسل من [اليهود والنصارى]. وكانت العرب تتمنى أن يكون منهم رسول كما كانت الرسل من بني إسرائيل، فلما جاءهم ما تمنوه وهو النذير من أنفسهم؛ نفروا عنه ولم يؤمنوا به .





سورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

ومنها جمعت هاتين الخرتين:

❁ الأولى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾﴾.

فأثار المرء التي تبقى وتُذكر بعد الإنسان من خير أو شر يُجازى عليها من أثر حسن؛ كعلم علّموه، أو كتاب صنّفوه، أو حبيس (أي وقف في سبيل الله) احتبسوه، أو بناء بنوه من مسجد، أو نحو ذلك. أو [أثر] سيئ؛ كوظيفة وظّفها بعض الظّلام على المسلمين، أو شيء أحدثه فيه صد عن ذكر الله من ألحان وملاهي، وكذلك كل سنة حسنة، أو سيئة يُستنُّ بها.

❁ الثانية: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، ألا ترى كيف تمنى الخير لقتلته، والباغين له الغوائل [والشر] وهم كفرة عبدة أصنام.





سُورَةُ فَصَّلَاتٍ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى﴾: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كٰفِرُونَ ﴿٧﴾﴾.

قال الزمخشري: فإن قلت: لِمَ خص من بين أوصاف المشركين منع الزكاة مقرونًا بالكفر بالآخرة؟

قلت: لأن أحب شيء إلى الإنسان ماله، وهو شقيق روحه؛ فإذا بذله في سبيل الله فذلك أقوى دليل على ثباته واستقامته وصدق نيته ونصوع طوبيته. ألا ترى إلى قوله - ﷻ -: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: يثبتون أنفسهم، ويدلون على ثباتها بإنفاق الأموال، وما خدع أهل الردة بعد رسول الله - ﷺ - ما تظاهروا إلا بمنع الزكاة؛ فنُصبت لهم الحروب وجاهدوا. وفيه بعث للمؤمنين على أداء الزكاة، وتخويف شديد من منعها؛ حيث جعل المنع من أوصاف المشركين، وقُرِن بالكفر بالآخرة.

﴿الثانية﴾: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۗ﴾.

أي بلغة غير العرب لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته؛ أي بُيِّنَتْ بلغتنا فإننا عرب لا نفهم الأعجمية. فبين أنه أنزله بلسانهم ليتقرر به معنى الإعجاز،

إذ هم أعلم الناس بأنواع الكلام نظماً ونثراً، وإذا عجزوا عن معارضته؛ كان من أدل الدليل على أنه من عند الله، ولو كان بلسان العجم لقالوا: لا علم لنا بهذا اللسان.

الثالثة: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ .

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَّهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾؛ أي عاقبة ورخاء وغنى من بعد ضراء مسته من ضر وسقم وشدة وفقر؛ ليقولن هذا لي؛ أي هذا شيء أستحقه على الله لرضاه بعملتي، فيرى النعمة حتماً واجباً على الله تعالى، ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة؛ ليتبين شكره وصبره.

الرابعة: ﴿سَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ .

﴿فِي الْأَفَاقِ﴾؛ يعني أقطار السماوات والأرض؛ من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها.

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾؛ من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول؛ فإن الإنسان يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين، وبديع صنعة الله وحكمته في عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما، وفي أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة، وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه.





سُورَةُ مُحَمَّدٍ

ومنها هذه الدرّة:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾.

وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة؛ فالعامة رحم الدين، ويوجب مواصلتها بملازمة الإيمان والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارّتهم، والعدل بينهم، والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى، وحقوق الموتى - من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم -، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم.

وأما الرحم الخاصة؛ وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة؛ كالنفقة وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدتهم في أوقات ضروراتهم، وتأكيد في حقهم حقوق الرحم العامة؛ حتى إذا تزاومت الحقوق بُدئ بالأقرب فالأقرب.





سُورَةُ الْفَتْحِ

ومنها جمعت هاتيد الخُرْتِيد:

❁ الأولى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾ .

قال الشعبي في قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾﴾؛ هو فتح الحديبية؛ لقد أصاب بها ما لم يُصَب في غزوة؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبويع بيعة الرضوان، وأطعموا نخل خيبر، وبلغ الهدي محله، وظهرت الروم على فارس؛ ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس.

❁ الثانية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجَدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴿٤﴾﴾ .

فمن انتقص واحدًا من [الصحابة] أو طعن عليه في روايته؛ فقد رد على الله رب العالمين، وأبطل شرائع المسلمين. قال الله تعالى ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، إلى غير ذلك من الآيات التي تضمنت الثناء عليهم، والشهادة لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وقال [عن المهاجرين] ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾﴾، ثم قال عزَّ من قائل

[عن الأنصار] ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾؛ وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم، وقال رسول الله - ﷺ -: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم». وقال «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه» خرَّجهما البخاري.





سُورَةُ الدَّارِيْنَ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٦١).

قال السائب بن شريك: [الإنسان] يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبنًا محضًا لخرج منه الماء ومنه الغائط؛ فتلك الآية في النفس.

وقيل: المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني، وأنه إذا [خشن ويبس] شيء منها جاء العجز؛ فتبارك الله أحسن الخالقين. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٦)؛ يعني بصر القلب؛ ليعرفوا كمال قدرته.

❁ الثانية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (٢٢) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ نَاطِقُونَ﴾ (٢٣).

قال بعض الحكماء: كما أن كل إنسان ينطق بنفسه ولا يمكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كل إنسان يأكل رزقه ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره.

وقال الأصمعي: أقبلت ذات مرة من مسجد البصرة إذ طلع أعرابي [جالس] على [جمل] له متقلداً سيفه وبيده قوسه، فدنا وسلم وقال: ممن الرجل؟ قلت: من بني أصم. قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلى فيه كلام الرحمن؛ قال: وللرحمن كلام يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم. قال: فأتل عليّ منه شيئاً؛ فقرأت ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ إلى قوله ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾. فقال: يا أصمعي حسبك. ثم قام إلى ناقته فنحراها وقطعها، وقال: أعني على توزيعها؛ ففرقناها على من أقبل وأدبر، وولى نحو البادية وهو يقول ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فمقت نفسي ولُمّتها، ثم حججت مع الرشيد، فبينما أنا أطوف إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت فإذا أنا بالأعرابي فسلم عليّ وأخذ بيدي وقال: اتل عليّ كلام الرحمن؛ فقرأت ﴿وَالَّذِينَ ذَرَوْا﴾ حتى وصلت إلى قوله تعالى ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا الرحمن حقاً، وقال: وهل غير هذا؟ قلت: نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَطْقُونَ﴾؛ فصاح الأعرابي وقال: يا سبحان الله! من الذي أغضب الله حتى حلف! ألم يصدقوه في قوله حتى ألجؤوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً؛ وخرجت بها نفسه. (أي مات).

وروي أن قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة (أي آفة ومُصيبة أهلكت الزرع) فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم [امرأة] فقالت: ما لي أراكم قد نكستم رؤوسكم وضائق صدوركم، هو ربنا والعالم بنا، رزقنا عليه يأتينا به حيث شاء؛ ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرة في البحر راسية صُماً مُلملمة ملس نواحيها
رزق لنفس براها الله لانفلقت حتى تؤدي إليها كل ما فيها

أو كان بين طباق السبع مسلكتها لسهل الله في المرقى مراقيها حتى تنال الذي في اللوح خط لها إن لم تنله وإلا سوف يأتيها وفي هذا المعنى قصة الأشعريين (قوم الصحابي أبي موسى الأشعري) حين أرسلوا رسولهم إلى النبي - ﷺ - فسمع [رسولهم] قوله تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾؛ فرجع ولم يكلم النبي - ﷺ - وقال: ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب.

الثالثة: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال مجاهد: يعني الذكر والأنثى، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجن والإنس، والخير والشر، والبكرة والعشي، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطعوم والروائح والأصوات؛ أي جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا.





سُورَةُ الطُّورِ

ومنها جمعت هاتين الخرتين:

الأولى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: إن الله ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عينه، وتلا هذه الآية.

وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يحب ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة وإن كان لم يبلغها بعمله؛ لتقر بهم عينه». صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة.

قال الزمخشري: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم.

الثانية: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

أي بمرأى ومنظر منا نرى ونسمع ما تقول وتفعل؛ بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونحرسك ونرعاك.

ومنه قوله تعالى لموسى عليه السلام ﴿وَلِنُصَنِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾؛ أي بحفظي وحراستي.



سُورَةُ الرَّحْمَنِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

روى أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «كل يوم هو في شأن؛ قال: من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين». وقال عمرو بن ميمون في قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ من شأنه أن يميت حياً، ويقر في الأرحام ما شاء، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً. وسأل بعض الأمراء وزيره عن قوله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ فلم يعرف معناها، وأمهله إلى الغد؛ فانصرف كئيباً إلى منزله. فقال له غلام له: ما شأنك؟ فأخبره. فقال له: عد إلى الأمير فإني أفسرها له، فدعاه فقال: أيها الأمير؛ شأنه أن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويشفي سقيماً، ويُسقم سليماً، وابتلي معافي، ويعافي مبتلى، ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً، ويفقر غنياً ويغني فقيراً؛ فقال له: فرجت عني فرج الله عنك.

الثانية: ﴿مُكَلِّبِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قُبُلُهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

قيل: فيهن يعود على الفُرُش التي بطائنها من إستبرق؛ أي في هذه

الفرش قاصرات الطرف؛ أي نساء قاصرات الطرف، قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم.

في هذه الآية دليل على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة ويكون لهم فيها جنّيات.

قال ضمرة: للمؤمنين منهم أزواج من الحور العين؛ فالإنسيات للإنس، والجنّيات للجن.

الثالثة: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنَاتٌ﴾.

حسان أي حسان الخلق، وإذا قال الله تعالى [عن الحور العين بأنهن] حسان؛ فمن ذا الذي يقدر أن يصف حسنهن!.

الرابعة: ﴿بَنَزَكْ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

وكانه يريد اسم [الرحمن] الذي افتتح به السورة؛ فوصف خلق الإنسان والجن، وخلق السماوات والأرض وصنعه، وأنه كل يوم هو في شأن، ووصف تدبيره فيهم، ثم وصف يوم القيامة وأهوالها، وصفة النار، ثم ختمها بصفة الجنان، ثم قال في آخر السورة ﴿بَنَزَكْ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنه يُعلمهم أن هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقتكم، وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار؛ فهذا كله لكم من اسم الرحمن؛ فمدح اسمه ثم قال ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾؛ جليل في ذاته، كريم في أفعاله.





سورة الجاثية

ومنها هذه الدرّة:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

هي خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت - أخو عبادة بن الصامت -، [وكان أوس قد قال لها: أنت عليّ كظهر أمي؛ وكانت هذه العبارة في الجاهلية تُعدُّ طلاقاً، فما زالت خولة تُراجع رسول الله - ﷺ - في ذلك؛ حتى نزلت هذه الآية ولم يُعد الظهار طلاقاً؛ وإنما جعل الله فيه الكفارة].

مر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته والناس معه على حمار، فاستوقفته [خولة] طويلاً، ووعظته، وقالت: يا عمر قد كنت تدعى عُميراً، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب. وهو واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟ فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره لا زلت إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟

وقالت عائشة - رضي الله عنها -: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني

لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله - ﷺ -، وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر منّي، اللهم إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾.





سورة الجمعة

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.

ضرب [الله] مثلاً لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ولم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - ﴿حُمِلُوا التَّوْرَةَ﴾؛ أي كلفوا العمل بها. كمثل الحمار يحمل أسفاراً؛ هي جمع سيفر، وهو الكتاب الكبير؛ لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ.

قال ميمون بن مهران: الحمار لا يدرى أسفر على ظهره أم زنبيل؛ فهكذا اليهود.

وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ويعلم ما فيه؛ لئلا يلحقه من الهم ما لحق هؤلاء.

الثانية: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ هَادُوا وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتَّوْا أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

لما ادعت اليهود الفضيلة وقالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّواهُ﴾؛ قال الله تعالى ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ فلأولياء عند الله الكرامة؛ ﴿فَتَمَتَّوْا أَلْمُوتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾؛ لتصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله.

الثلثة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ .

حَرَّمَ [الله البيع] في وقت الجمعة على من كان مخاطباً بفرضها .
والبيع لا يخلو عن شراء؛ فاكتفى بذكر أحدهما، كقوله تعالى ﴿سَرَّيْلَ
تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [وسراييل أخرى تقيكم البرد؛ فاكتفى بالحر دون البرد]،
وخص البيع؛ لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق .





سُورَةُ الْبَلَدِ

ومنها جمعت هاتين الحزتين:

﴿الْأُولَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾﴾.

في كبد؛ أي في شدة وعناء من مكابدة الدنيا .
قال علماؤنا: أول ما يُكابد قطع سرتة، ثم يُكابد الختان، ثم يُكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه (أي نطق الكلام)، ثم يُكابد الفِطام، والأوجاع والأحزان، ثم يُكابد المعلم وصولته، والأستاذ وهيبته، ثم يُكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يُكابد شغل الأولاد، ثم يُكابد شغل الدور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها؛ من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدين، ووجع السن، وألم الأذن .
ويُكابد محنًا في المال والنفس؛ مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يُكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مساءلة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار؛ إما في الجنة وإما في النار، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد؛ ودل هذا على أن له خالقًا دبّرهُ، وقضى عليه بهذه الأحوال؛ فليمتثل أمره .

﴿الثانية: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ وَتَوَّصُوا بِالْمَرْحَمَةِ﴾﴾.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ يعني أنه لا يقتحم العقبة من

فك رقبة، أو أطعم في يوم ذا مسغبة [كما ورد في الآيات التي قبل هذه الآية] حتى يكون من الذين آمنوا؛ أي صدقوا، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله. فالإيمان بالله بعد الإنفاق لا ينفع، بل يجب أن تكون الطاعة مصحوبة بالإيمان، قال الله تعالى في المنافقين ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

قالت عائشة: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم الطعام، ويفك العاني (أي الأسير)، ويعتق الرقاب، ويحمل على إبله لله، فهل ينفعه ذلك شيئاً؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». رواه مسلم.





سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

ومنها هذه الدرّة

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ .

لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة . وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي ؛ لأنها تذكر الموت والآخرة ؛ وذلك يحمل على قصر الأمل ، والزهد في الدنيا ، وترك الرغبة فيها .

قال العلماء : ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه ؛ أن يكثر من ذكر هادم اللذات ، ومفرّق الجماعات ، وموتم البنين والبنات ، ويواظب على مشاهدة المحتضرين ، وزيارة قبور أموات المسلمين ؛ فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه ، ولزمه ذنبه ، أن يستعين بها على دواء دائه ، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه ؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت ، وانجلت به قساوة قلبه فذاك ، وإن عظم عليه ران قلبه (أي على قلبه غشاوة تمنعه من الاعتبار والاتعاظ) ، واستحكمت فيه دواعي الذنب ؛ فإن مشاهدة المحتضرين ، وزيارة قبور أموات المسلمين ، تبلغ في دفع ذلك ؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير ، وقائم له مقام التخويف والتحذير .

وينبغي لمن عزم على الزيارة ، أن يتأدب بآدابها ، ويحضر قلبه في إتيانها ، ولا يكون حظه منها التطواف على القبور فقط ؛ فإن هذه حالة

تشاركه فيها بهيمة، ونعوذ بالله من ذلك؛ بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه.

ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها، ويسلم إذا دخل المقابر؛ ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحسبه، وهول لم يرتقبه؛ فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف انقطعت آمالهم، ولم تُغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاءهم، وترمّل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذلّ اليتيم أولادهم. وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان متردداً في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحالهم، ومآله كمالهم؛ وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية؛ فيزهدهم في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخضع جوارحه.



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٧	من هو الإمام القرطبي؟
١٥	سورة الفاتحة
١٩	سورة البقرة
٣٥	سورة آل عمران
٤٠	سورة النساء
٤٤	سورة المائدة
٤٩	سورة الأنعام
٥٣	سورة الأعراف
٥٥	سورة الأنفال
٥٩	سورة التوبة
٦٣	سورة يونس
٦٦	سورة هود
٦٩	سورة يوسف
٧٩	سورة الزمر
٨٢	سورة إبراهيم
٨٥	سورة الحجر
٨٧	سورة الحديد
٩٣	سورة الإسراء
٩٩	سورة الكهف
١٠٥	سورة مريم

الصفحة

الموضوع

١٠٩	سُورَةُ طٰهٍ
١١١	سُورَةُ الْاَنْبِيَاءِ
١١٢	سُورَةُ الْمُؤْمِنُوْنَ
١١٣	سُورَةُ النَّوْرِ
١١٧	سُورَةُ الْفُرْقَانِ
١٢١	سُورَةُ الشُّعَرَاءِ
١٢٦	سُورَةُ النَّازِعَاتِ
١٣٠	سُورَةُ الْعَنْكَبُوْتِ
١٣٢	سُورَةُ الْاُرُوْمِ
١٣٤	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٣٦	سُورَةُ الْاِحْقَابِ
١٤٠	سُورَةُ سُورَةُ سَبَا
١٤٤	سُورَةُ وَطْءِ
١٤٦	سُورَةُ الْاِسْرٰءِ
١٤٧	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٤٩	سُورَةُ مُحَمَّدٍ
١٥٠	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٥٢	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٥٥	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٥٦	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٥٨	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٦٠	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٦٢	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٦٤	سُورَةُ الْاَنْعَامِ
١٦٦	الفهرس

تفسير القسبي

